

صالح جودت

بلابل مع السرور

اقرا



مؤدث

الدين في الشرق

الطبعة الثانية



دارالمعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

شاعر الرقة العاطفية

إبراهيم ناجي

سبعة من سراة العاصمة اتفقوا على أن يهجروا ضوصاء المدينة دون أن ينأوا عنها . فاهتدوا إلى مساحة واسعة من الأرض تقع وراء محطة مصر ، عند الموقع المعروف الآن بشبرا الصغرى ، وكانت يومئذ حقولا تجرى من تحتها نهيرات مياه التربة البولاقية ، وتتفرع منها قنوات كقنوات البندقية .

وفي هذه المساحة الشاعرية ، أسسوا « مدينة الأحلام » وأقاموا بها بيوتاً هي أقرب إلى القصور : أولها بيت السيد حسونة الطوير (وهو يومئذ عامل تونس في مصر) - يليه بيت المرجوشي ، التاجر الكبير بالغورية - يليه بيت العطار ، التاجر بالصناديق ثم ينحرف الطريق يساراً ، وعند منتصفه يقوم البيت رقم ٢٢ بشارع العطار ، وهو بيت أحمد ناجى ، الذى نشأ فيه ابنه الشاعر إبراهيم ، ثم يليه بيت الشيخ إبراهيم الشرقاوى ، حفيد الشيخ عبد الله الشرقاوى الكبير .

وفي ركن من الحى ، يقوم بيت عثمان جلال ، الأديب المعروف وصاحب « العيون اليواقظ » يليه بيت الزعيم محمد فريد . وهكذا أحاطت بشاعرنا فى طفولته عطور الزعامة الوطنية والدينية والأدبية والعصامية .

ومن اسم هذه المدينة الصغيرة - مدينة الأحلام - استوحى شاعرنا قصة نصف طويلة كتبها فى منتصف عمره ، وظهرت ضمن مجموعة

من القصص المؤلفة والمترجمة ، أطلق عليها جميعاً اسم «مدينة الأحلام» .

وفي بيت من هذه البيوت السبعة أيضاً — ولا أسميه — كان الحب الأول في حياة الشاعر ... الحب الذي طارد خياله طول حياته على يأس .

* * *

وشاعرنا هو ثاني أخواته وإخوته السبع .

ولد عند منتصف الليلة التي صافح فيها عام ١٨٩٨ عام ١٨٩٩ وسجل على أنه من مواليد ٣١ ديسمبر من عام ١٨٩٨ ، وكأنه أبى إلا أن يشهد عاماً واحداً من القرن المنصرم ، ثم يقضى بقية ما كتب له من العمر في القرن الجديد .

ورث شاعرنا عن أبويه كثيراً من خلاهما .

ورث عن أبيه حب العلم ، والدأب في القراءة ، والذاكرة القوية ، والقدرة على اللغات ، فأجاد الإنجليزية والفرنسية والألمانية ، وقرأ كثيراً من آداب هذه اللغات ، فإذا كان أبوه قد اكتسب الجاه بالعصامية ، فإن شاعرنا قد اكتسب الأدب بالعصامية ، فعلم نفسه مالم يلقيه إياه أستاذ ولا مدرسة ، ونبه شأنه — وهو الطبيب — في الشعر والأدب والقصة وعلم النفس وغيرها من ضروب الثقافة .

ورث عن أمه إنسانيتها ، ونخفة ظلها .

يروى عن أمه أن طاهى البيت أصيب بدات الرئة ، فاستبقته في البيت بقية حياته ، تصله وتحذب عليه ، دون أن يعمل .

وقد نشأ ابنها الشاعر على شاكلتها إنساناً لا يملك ما في جيبه ،
وطبيباً عيادته مفتوحة الأبواب على مصراعيها لفقراء الأدب والفن وغيرهم .
وكانت هذه السيدة الظريفة تحسن النكتة . وقد نشأ إبراهيم على
جديلتها ، فكان من ظرفاء عصره ، وله نكات مأثورة تجرى مجرى نكات
البابلي والبشرى وراى وغيرهم من ظرفاء العصر .

* * *

التحق شاعرنا ، أول ما التحق ، بمدرسة « سبيل أم محمد على »
إذ كانت أقرب المدارس إلى البيت ، ثم لأنها كانت على غرار رياض
الأطفال في عصرنا .

كان ذلك سنة ١٩٠٤ .

ثم انتقل إلى مدرسة باب الشعرية الابتدائية ، وبدأ يتفوق على أقرانه
 ويفوز بجوائز التفوق في كل مناسبة . فلما أدرك العاشرة ، سأله أبوه
 آية هدية يطلب إذا نجح ، فأجاب شاعرنا بأنه يتطلع إلى كتاب من
 كتب تشارلز ديكنز ، إذ كان إبراهيم مفتوناً بهذا الكاتب . وإنك
 لتجده في مقدمة كتاب « مدينة الأحلام » يقول إن تأثير ديكنز
 عليه كان بالغاً ، وإنه هو الذى فتح له آفاق الجمال ، فأصبح يحب
 الخير الذى كان ديكنز ينشده للفقراء والمعوزين ولوطنه وللناس جميعاً .
 وهكذا سيطر عليه الحب الذى لا يكاد يخلو بيت واحد له من
 ذكره .

* * *

وانتقل إبراهيم بعد ذلك إلى المرحلة التالية من حياته المدرسية ،
فالتحق بالمدرسة التوفيقية الثانوية بشبرا .

وهنا تبلورت اتجاهاته ، فقد بدأ محاولاته الشعرية وهو في الحادية
عشرة ، وحفظ ديوان الشريف الرضى من الغلاف إلى الغلاف .
ولم توافه سنة ١٩١٢ حتى كان ينشد الشعر - شعره هو - وهو في
الثالثة عشرة ، ينسجه على المنوال الذى حفظه . منوال الشريف الرضى ،
ويستعين على ضبط أوزانه بالتحايل والدوائر والشرط .

* * *

بدأ شعر إبراهيم يتردد فى مجالس أصدقائه ، ويتناقله رواة عن
رواة ، حتى رحلت به الوظيفة إلى سوهاج ، ثم إلى المنيا ، ثم استقرت
به حينئذ فى المنصورة .

والمنصورة أرض طيبة . تنبت الشعر والحمال ، والحب والخيال .
وهى التى أنجبت للبلد عشرات من أعلام الشعر والأدب والمسرح
والغناء والفنون عامة .

وفى المنصورة ، عرفت الشاعر إبراهيم ناجى ، إذ كنت يومئذ
طالباً بالمدرسة الثانوية وكان لى زميل أثير ، هو الشاعر م . ع .
الهمشرى ، وقد كان شاعراً موهوباً مأمولاً للمستقبل ضخم ، لولا
أن عاجلته المنية وهو فى أوج شبابه .

كنا نخرج أنا والهمشرى من المدرسة ، فنلتقى بشاعرين يكبراننا ،
وكان المستقبل يتهيا لهما يومئذ ، هما إبراهيم ناجى الطبيب ، وعلى محمود

طه المهندس ، فكنا نجلس نحن الأربعة على شاطئ النيل ، نفصّل أجمل ليالى العمر فى حديث الأدب والشعر والجمال .

كانت هذه الصحبة مدرسة جديدة فى الشعر ، تقاربت خطوطها فى ذلك العهد إلى حد أن اختلط شعرنا على الناس فى كثير من الأحيان فنسب إلى غير صاحبه ، وإلى حد أن أحداً منا نحن الأربعة لم يكن يعرف من التلميذ ومن الأستاذ ، فقد أفاد كل منا بصبغة الآخرين .

وكان لنا أصحاب ثلاثة من شعراء الشباب فى الأدب الإنجليزى ، هم شلى وكيثس وورد زورث ، نقرأهم كثيراً ، ونحس بما بيننا وبينهم من أواصر الشعر وشائج الشباب وعبادة الجمال وروح الثورة على القديم . وفى المنصورة ، نظم ناجى قصيدة « شجرة الملتقى » وبعث بها إلى مجلة « السياسة الأسبوعية » وهى يومئذ أعظم صحيفة أسبوعية أدبية ، فاحتفت بها الصحيفة ، ونشرتها فى مكان كريم .

وبدأنا نفعل ما فعل ناجى ، بعد أن كنا نشفق من إرسال شعرنا إلى الصحف مخافة الإهمال ، فأرسلناه ، وبدأنا نأخذ طريقنا إلى الناس .

* * *

وانتهت أيام المنصورة الحلوة

وزحفنا نحن الأربعة على القاهرة فى وقت واحد .. ناجى إلى وظيفته بالقسم الطبى بمصلحة السكك الحديدية ، والمهندس إلى وظيفته بوزارة الأشغال ، والهمشرى إلى كلية الآداب ، وأنا إلى كلية التجارة .

ومنذ ذلك الحين لم نفرق - أنا وناجي - إلى أن لقي وجه ربه ، إلا
ليالى معدودات .

عاد ناجي إلى القاهرة ومر بديار أحبابه الذين تغيرت مقاديرهم ،
فراها تصفر فيها الريح وتكسوها خيوط العناكب ، فنظم قصيدته
« العودة » التي تعد أروع قصائده ، ومطلعها :

هذه الكعبة كنا طائفها والمصلين صباحاً ومساء
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها كيف بالله رجعنا غرباء ؟

دار أحلامي وحبي ، لقيتنا في جمود مثلما تلقى الجديد
أنكرتنا ، وهى كانت إن رأتنا يضحك النور إلينا من بعيد

وكان ناجي - بعد قصيدة العودة - قد أبى إلا يغير قدره كما
تغيرت أقدار أحبابه ، فودع أيام العزوبة ، وخطب الآنسة « سامية »
كرعية اللواء محمد سامي ، أمين محافظ القاهرة يومئذ .

ولولا أن هذه السيدة كانت واسعة الأفق ، ما استطاع ناجي أن
يواصل رسالته كشاعر ، وهو يطالعها كل يوم بقصائد مطولات عن
حبه القديم ، ثم يختم أمسياته كل ليلة بجديد من غزلياته ، مرة في
« راقصة » وأخرى في « سمراء المحفل » وثالثة في « هند » ورابعة في
« سونيا » وخامسة في « زازا » . . . إلخ .

ولم يعقب ناجي ولداً ، وإنما أعقب ثلاث بنيات :

وكانت الوسطى « ضوحية » أقرب الثلاث إلى قلبه . كان يفتح لها مغاليق قلبه ، ويسرها النجوى ، ويختصها دون شقيقتها بأكثر من قصيدة ، مما تجدد في دواوينه .

* * *

تلفتت مجتمعات الأدب إلى ناجى منذ عودته من المنصورة ، وتلقفته مجامعها مهلة محتفية ، فأصبح من المقربين إلى أمير الشعراء . حينما قامت جمعية « أبولتو » في سنة ١٩٣٢ ، ورئيسها يومئذ أمير الشعراء ، وأمينها العام الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، كان ناجى فى الطليعة من رواد هذه الجماعة ، ووقع عليه الاختيار ليكون وكيلها ، وكنا نحن : على محمود طه وزكى مبارك والصيرفى والهمشرى ومختار الوكيل ، أعضاء فى مجلس الإدارة .

وفى سنة ١٩٣٤ ، ظهر أول ديوان لناجى « وراء الغمام » . الغمام . . الذى يتطلع ناجى إلى الأرض فيراه يحجب حقائق الناس ، فتلك راقصة تلهو وتمرح وكأنها أسعد أهل الأرض ، فإذا انقشع عنها الغمام ، تجلت وراءه مأساة دامية ، يصورها لنا فى قصيدته « قلب راقصة » ويقول فيها :

لا تكنمى فى المصدر أسراراً وتحلنى كيف الأسى شاء
أنا لا أرى رجساً ولا عاراً لكن أرى امرأة وبأساء
للغمام . . الذى يصعد ناجى بعينه إلى السماء ، فيراه يحجب حقائق السماء ، فيسمو إليها بخياله قائلاً فى قصيدته « صلاة الحب » :

سموت ودق إحساسى وجزت عوالم البشر
نسيت إساءة الناس غفرت خطيئة القدر

* * *

ويذهب ناجى عقب صدور هذا الديوان ، إلى لندن فى مهمة علمية ، وتقع فى يده صحف القاهرة ، فإذا هى زاحرة بمعركة حول قيمة شعره ، وإذا بعض أصدقائه ، الذين طالما طربوا له وصفقوا ، يلحونه ويصغرون مكانته ... وإذا كاتب جهور ممن يوجهون الرأى الأدبى فى البلد ، يكتب عن قصائد « وراء الغمام » فيقول : « إنها أشعار حسنة ، ولكنها أشعار صالونات ، لا تتحمل أن تخرج إلى الخلاء فىأخذها البرد من جوانبها » .

هذه الحملة بالذات كانت أكثر ما هز كيان ناجى الرقيق هزاً عنيفاً .

كان يتخيل له أن صدور ديوانه هذا سيكون وثيقة كبيرة له فى طريق المجد ، يسجلها له الكاتبون ، ونسى أن المجد هو ما يسجله هو لنفسه ، لا ما يسجله له الكاتبون . ولكن جمود الأصدقاء الذين هاجموه فى غيبته هذ كيانه ، وكلمة الكاتب الجهور تركت جرحاً عميقاً فى أعماقه ، فراح يردد هذا البيت :

هى محنة وزمان ضيق وتمخضت عن لا صديق
وانبرت جماعة أبولو تدافع عنه على صفحات مجلتها ، وعلى صفحات جميع المجلات ، ولكن كل هذا لم يخفف عن نفسه أحمالها .

وبينما هو سارح في شوارع لندن ، شارد للفكر تائه النظرات ،
دمته سيارة أدخلت عظمة الساق في الخوض من فتحة فكسرتة .
ونقل ناجى إلى مستشفى سانت جورج ، وجمع عليه فوق آثار
الصلمة شدة داء السكر الذى كان يشكو منه ، وبرد لندن القارس ،
كل هذا فوق المحنة النفسية التى كان يعانيها من ناقدية .
ورقد أشهراً في لندن ، وأجريت له جراحة خطيرة كللت بالنجاح
وخرج من المستشفى يجرر ساقيه على عكازين ، ولكن المارة التى في
نفسه عاشت معه بعد ذلك حقبة طويلة من الزمن ، حتى بعد أن
أتى العكازين .
وأدركت به الباخرة وهو في طريق العودة ، مدينة البندقية ، فقال
والنشوة في عينيه ، والمرارة في أعماقه :
يارب ما أعجب هذى البلاد لاليل فيها ، كل ليل صباح
وكل وجه في حماها ضما ومصر لا تنبت إلا الجراح
ثم أشرفت به الباخرة على شواطئ مصر ، فصاح يقول :
هتفت وقد بدت مصر لعينى رفاقي ، تلك مصر يا رفاقي
خرجت من البلاد أجز سقى وعدت إلى البلاد أجز ساقى
أندفعنى وقد هاضمت جناحى وتجذبني وقد شددت وثاقى ؟
على أن القدر تلطف بالشاعر ، فاعتدلت ساقاه ، ولم تترك صدمة
لندن أثراً في مشيته ، وإن كانت قد تركت آثاراً في أعماق نفسه .

عاد ناجي إلى مصر ، وقد كفر بكثير من القيم التي طالما آمن بها ،
وفي طلباتها قيمة الصداقة ، وقيمة الشعر .

لقد هاله أن يجد بين أصحابه شاعراً يتنكر له بعد صحبة طويلة .
فهجاه وهو الذي عاش يكاد لا يعرف معنى كلمة الهجاء .

هجاه هجاء تجرد فيه لأول مرة من نزعتة الإنسانية العميقة ، حتى
إنه تمنى له الموت ، واختتم أبيات القصيدة بقوله كما قال قيصر لبروتس :
حتى أنت :

قال :

أيها الحى ، وما ضر الورى لو كنت متاً ؟
أو شعر ذاك ، لا بل حجر ينحت ونحنا
تلقم الناس وتريهم به فوقاً ونحنا
صحت من يأسى لما بركيك الشعر صحتنا
آه يا قاتل يا سفاك .. حتى أنت .. حتى ؟

ثم تنكر ناجي للشعر ، وأقسم ألا يقوله أبداً .

ولكن . . . هل يستطيع أن يخاصم قلمه ؟

لا . . . وإنما اتجه به حيناً إلى القصة المترجمة ، ثم المؤلفة . على أنه
لم يصل في هذا المجال إلى شيء مما وصل إليه في مجال الشعر .

وظهر كتابه « مدينة الأحلام » وفيه القصة التي أسلفت الإشارة إليها .
وقال في مقدمة « مدينة الأحلام » :

« وداعاً أيها الشعر . . . »

« وداعاً أيها الفن . . . »

« وداعاً أيها الفكر . . . »

وكأنما القصة ليست من الفن

وكأنما الدراسات النفسية التي اتجه إليها بعد ذلك ليست من الفكر .

وهنا . . . نسجل فضلاً للأستاذ الدكتور طه حسين ، الذي قسا على شعر ناجي من قبل ، وقد هاله أن يطلق ناجي الشعر ، فأراد أن يحرضه على العودة إليه تحريضاً جميلاً ، فأنشأ في صحيفة « الوادى » فصلاً مشوقاً قال فيه :

« إنى لم أحزن حين رأيت الدكتور ناجي يعلن زهده في الشعر ، لأننى قدرت أن الدكتور ناجي إن كان شاعراً حقاً ، فسيعود إلى الشعر إن راضياً وإن كارهاً ، سواء ألححت عليه في النقد أو رفقت به ، وإن لم يكن شاعراً فليس على الشعر بأس في أن ينصرف عنه ويزهد فيه . »

وكان لهذا التحريض أثره عند ناجي ، فانحلت عقده النفسية واحدة وراء الأخرى ، وعاد إلى صفاته وأصدقائه وأناشيده الخالدة .

* * *

عاد ناجي يغرد بأجمل مما كان يغرد .

وعاد إلى حياة الليل ، لأنه كان يعشق الليل . كان أقل النوم يشبعه ، وأقل الطعام يكفيه ، وهو في الحب كذلك ، أقل الرضا يرضيه . وكان معنا في مدرسة الليل هذه كثير من أبناء المدرسة الحديثة — الحديثة



يومئذ - أذكر منهم محمود تيمور ، وتوفيق الحكيم ، وأحمد رامى ، وإبراهيم المصرى ، والدكتور حسين فوزى ، ومحمود طاهر لاشين ، وعلى أدهم وغيرهم .
وقد شهدت هذه الجلسات أعنف معارك الأدب التى خرجت من
المقهى أو الملهى إلى وجوه الصحف ، كما شهدت أبدع الأشعار
وأمتع الأفكار .

وأذكر أن واحداً ممن يعيشون على هامش الأدب ، كان يجالسنا
كل ليلة ويسمع ما يقال ويسجله أولاً بأول ، كما يسجل ما يغتاب به
بعضنا بعضاً من نقد ، فابلث أن اجتمع له من كل ذلك كتاب
كامل نشره ونسب ما فيه إلى نفسه ، وعد يومئذ فى الأدباء ، بعد أن
أثار كتابه هذا ، الذى لا فضل له فيه إلا فضل المغافلة ، ضجة فى
الأوساط الأدبية .

* * *

كانت الفترة التى هجر فيها ناجى الشعر غير مجدية ، فقد راح
يتلهى بترجمة القصة وتأليفها كما أسلفنا القول ، كما راح يترجم أهازيج
شكسبير وشعر بودلير ، ويلقى المحاضرات عن فرويد وغيره من علماء
النفس ، ويترجم المسرحيات ، ومن أشهر ما ترجم « الجريمة والعقاب »
لدستوفيسكى ، كما راح يكتب للإذاعة ، ويقرأ فى أدب فجر الإسلام ،
والأدب الروسى ، ويؤلف فى الطب ، ويصدر مجلة « حكيم البيت »
التي لم تستطع أن تخلص من روح الأديب الشاعر الفنان... ويصنع
كل شيء إلا أن ينظم الشعر .

إلى أن مرت المحنة ، ومرت معها محنة أخرى كان يعانيها من زملائه في العمل ، وهذه هي الأخرى وجدت طريقها إلى الانفراج حين ترك مصلحة السكك الحديدية ، وعين رئيساً للقسم الطبي بوزارة الأوقاف ، وهذه هي الفترة الوحيدة في حياة الشاعر ، التي كثر فيها شعره في المدائح والمجاملات ردًا للجميل ، كما يتبين للقارئ عند مراجعته لديوانه الثاني « ليالى القاهرة » الذى صدر سنة ١٩٥١ .

وطابت أيامه في وزارة الأوقاف ، في عهد الوزير الذى جاء به إلى هذا المنصب ، المرحوم عبدالمهادى الجندى ، ثم في عهد الوزيرين الأدبيين إبراهيم دسوقي وأباظة وعبد الحميد عبد الحق .

ثم ذهب المقدرون لأدبه ، وجاء غيرهم ، ودارت حوله الدسائس من زملائه وتكاثرت عليه الحفاظ ثم اتهمه الشائون بأنه غير منتج ، وأنه منصرف للشعر والأدب عن الطب ، وانتهى الأمر بإخراجه من وظيفته وهو في الخامسة والخمسين من عمره فيما سمي بالتطهير يومئذ .

وكانت الصدمة قاسية عليه من الجانبين النفسى والمالى .

صحح أن أحمد ناجى كان عصمياً بدأ من الصفر ، ولكن ولده إبراهيم ولد في ظل النعمة في قصر فيه عربة وحياد وإماء وتخدم وحشم . وتعود الشاعر النعمة طول حياته .

كان يكسب كثيراً من عيادته ، ولا يبتى على شيء مما يكسبه .

فلما جاءت هذه الصدمة كان صفر اليدين إلا من معاش محدود .

أما دخل عيادته ، فقد أخذ ينقص عنه كما انفضت عنه الدنيا ،

إلا من الفقراء الذين كانوا لا يؤدون له على العلاج أجراً .
وينبغي لي ، قبل أن أترك سيرة ناجي ، أن أسجل أنه كان طبيباً
ناهماً ، ولكن فقد من حوله جنى عليه ، وهكذا عرف ناجي الحرمان
لأول مرة في حياته ، فاشتد عليه داء السكر ، وألحت عليه ذات الرئة ،
وراح يذوب سريعاً حتى انتهت قصة حياته في يوم ٢٥ مارس سنة ١٩٥٣ ،
ورقد إلى جوار جده الشيخ عبد الله الشراوي بمسجده بجوار الحسين .
ونزل الستار على المأساة التي توقعها قائلها :
حان الوداع ، فقيم تنتظر ؟
نزل الستار وأقفر العمر



شاعر الجبل الأخضر

أبو القاسم الشابي

هذا شاعر ساحر . . .

عرفه العالم العربي لأول مرة في عام ١٩٣٣ ، حين بعث مجلة أبولو -
التي كانت تصدر عن جماعة أبولو ، متخصصة في الشعر ودراساته -
بقصيدة عنوانها « صلاوات في هيكل الحب » .

فما إن طلعت هذه القصيدة على الناس ، حتى بهرتهم ، وتلفت
إليها أدباء العالم العربي وشعراؤه ونقادهم ، وتساءلوا جميعاً : من يكون هذا
الشاعر ؟ وأين موطنه ؟ وما عمره ؟ وأين كانت هذه الطاقة الشعرية
الضخمة مستخفية على عيون الأدب حتى اليوم ؟

وفي الحق أن القصيدة كانت ثورة في تاريخ الشعر العربي الحديث ،
وتاريخاً خليقاً بأن يؤرخ به للمدرسة الجديدة في أدب العاطفة المحقة .
فإن أردت أن تعرف ماهية هذه المدرسة ، فإني أترك أبا القاسم
يحدثك عنها في بحث له عن الشعر ، عنوانه « الأدب العربي في العصر
الحاضر » .

يقول أبو القاسم :

« ليس لنا أن نطالب الشاعر في شعره بغير الحياة . وإذا جاز لنا
أن نطلبه بأكثر من هذا . فلنطلبه بأن تكون هذه الحياة رفيعة سلمية
تتكافأ مع ما للشعر من قدسية الفن وجلاله . ففي الحياة كثير من
الحماقات والدنايا ، يتعالى الفن عن التدلي إليها من سمائه العالية .

« فإذا قرأنا شاعراً ، وجدنا فيه إنساناً من لحم ودم ، يحيا ويتنفس ، ويشعر ويفكر ، ويجاوبنا بالعطف والحنس والخيال ، وينسينا لحظة وجودنا المحسوس بما يخلعه علينا من جمال الفن وصره ، ويرتفع بمشاعرنا فوق دنيا هذا العالم ومحمراته — إذا وجدنا هذا الشاعر ، فلنقرأه في ثقة وإيمان ، فإنه الشاعر حقاً » !

* * *

هذا هو رأى أبى القاسم فى الشعر والشاعر ، وهذه هى خطوط مدرسته . فلننظر إلى أى مدى توأمت هذه الخطوط قصيدته التى حدثتكم عنها : « صلوات فى هيكल الحب » التى أقتطف من مطالعها هذه الأبيات :
 عذبة أنت .. كالطفولة .. كالأحلام .. كاللحن .. كالصباح الجديد
 كالسماء الضحوك ... كالليلة القمراء .. كالورد .. كابتهام الوليد
 يا لها من وداعة وجمال . . وشباب منعم أملود
 يا لها من طهارة تبعث التقديس فى مهجته الشقى العنيد
 خطوات سكرانة بالأناشيد . . وصوت كرجع ناي بعيد
 وقوام يكاد يهتف بالألحان فى كل وقفة وقعود
 كل شيء موقع فىك حتى لفظة الجيد واهتزاز النهود

* * *

هذه — فيما نعرف — أول قصيدة عرفه بها الناس فى الشرق العربى ، سنة ١٩٣٣ . أفلا يفجعكم أن أقول لكم بعد ذلك إن عاماً واحداً قد مر على نشر هذه القصيدة بمجلة « أبولو » ... وإذا برسالة حزينة قادمة

من تونس - وطن هذا الشاعر - تقول إن أبا القاسم قد مات وهو في الخامسة والعشرين من عمره ١٩ ؟

كيف مات ؟

إليك هذه العجالة عن حياته :

ولد أبو القاسم في يوم من أيام الربيع ، من عام ١٩٠٩ . ببلدة « توزر » بتونس الخضراء .

ولا نعرف من أمر طفولته إلا أنه نشأ كما ينشأ كل تونسي ، فحفظ القرآن الكريم ، وتعلم مبادئ العربية . وبلغ أشده بعث به أهله إلى العاصمة التونسية ، فالتحق بمعهد الزيتونة سنة ١٩٢١ ، ونال إجازته سنة ١٩٢٧ ، وانخرط بعد ذلك في كلية الحقوق التونسية ، فنال إجازتها سنة ١٩٢٩ .

وقضى الآونة بين ذلك العام ، حتى اليوم التاسع من أكتوبر سنة ١٩٣٤ . في مكان يقال له « باب حومة العلوج » ... ويومئذ جاء أهله إليه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة . ليأخذوه في سيارة إلى مسقط رأسه في بلدة توزر ، ولكن روح أبي القاسم أصرت على أن تلقى ربه في المكان الذي أظل عمرها القصير عند باب الحومة .

* * *

وماذا كان من أمر أبي القاسم خلال هذه السنوات القصصار التي عاشها في شبابه ؟

من أسف أن ما وقعنا عليه من المعلومات عن هذه الفترة من حياة

الشاعر ليس بالكثير . ولكنه كاف كل الكفاية لإرشادنا إلى المؤثرات الكبيرة في حياته وشعره .

من ذلك ، أنه قيل إن أبا القاسم أحب حباً عفيفاً عفيفاً ، وكان — كما أحررنا من قصيدته التي سقت أبياناً منها — لا ينظر إلى محبوبته كما ينظر غيره من الرجال إلى محبوباتهم

لم يكن يتعمق في أنوثتها ويستلهم جنسها ، وإنما كان يراها قصيدة أو أغنية ، أو هيكلًا للعبادة ، أو محرّاباً للنور والطهر ، أو كعبة لسدنة الفن !

قال أديب تونسي : « إن حباً جارفاً باكرأبا القاسم ، فغمره وساقه في موكب حافل من العواطف الجاحجة والأخيلة الواسعة . ولكن الموت اختطف حبيبته ، فبكى أبو القاسم ، ورثل أناشيده العاطفية مرجعاً كل شيء في حياته إلى الحب »

* * *

أما المؤثر الثاني فهو أن أبا القاسم كان مجدداً جريئاً صاحب دعوة تقدمية كبيرة في الأدب الحديث .

وقد عكف على نشر آرائه في تونس ، في صحفها ومجالاتها ، وهي يومئذ بيئة شديدة المحافظة والتعلق بالقديم ، في مجال الأدب وفي كل مجال من مجالات الفكر والحياة ، فلقى حرباً شعواء ، ولقى حتماً كثيراً ، ولقى حفاظ وأحقاداً ترى من كل فج ، حتى امتلأ قلبه — كما قال — باليأس من الشعب الذي يعيش فيه ، هامساً لنفسه « لاكرامة لني

في وطنه ، ، راثياً لهذا الشعب في قصيدة عنوانها « النبي المجهول » وفيها يقول :

أيها الشعب ليتني كنت خطاباً فأهوى على الجذوع بفأسي
أنت روح غبية تكره النور وتقضي الدهور في ليل ملس
أنت لا تترك الحقائق إن طافت حوالبك دون مس وجس
في صباح الحياة ضمتخت أكوابي وأترعتها بخمرة نفسي
ثم قدمتها إليك فأهرقت رحيقي ودست يا شعب كأسى
فتأملت ، ثم كفكفت آلامي ، وأسكت من شعوري وحسي
ثم نصدت من أزاهير قلبي باقة لم يمسها أي إنسي
ثم قدمتها إليك ، فزقت ورودي ودستها أي دوس
ثم ألبستني من الحزن ثوباً ، وبشوك الصخور توجت رأسي
هأنا ذاهب إلى الغاب يا شعبي لأقضي الحياة وحدي بيأسي
ثم أنساك ما استطعت ، فما أنت بأهل لحمرتي ولكأسي
سوف أتلو على الطيور أناشيدى وأقضي لها بأحزان نفسي
ثم أقضي هناك في ظلمة الليل وأمضي عن الوجود ببؤسي
وهكذا فعل أبو القاسم ...

لقد صدق وعده وهجر الناس ، وذهب إلى الغاب ، وإلى الجبال
والواح ، وعاش في المتنى الأخضر الذي اختاره لنفسه ، يطل على البحر
المتوسط ، ويرعى الأغنام ، وينفخ في الناي ، وينظم الشعر ، بعد أن
يئس من الناس إذ شنوا عليه حرباً عواناً وهو بسبيل رسالته المستحدثة

فى الأدب ، وهو إلى جانب هذا يبشر بين قومه بالحرية ، ويحرضهم على الثورة على الاستعمار والذود عن الحياض ، هاتفاً بهم فى قصيدته المشهورة « إرادة الشعب » التى يحفظ الملايين من العرب مطلعها بدون أن يعرف أكثرهم صاحبه :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي
ولا بد للقيد أن ينكسر

* * *

وهكذا اجتمع على أبى القاسم حب كبير (وإن كنا لا نجزم فيه بموت الحبيبة) وحرب من الجهادين ، واضطهاد من المستعمرين ... وعلى نيران هذه الحروب الثلاثة ، احترق أبو القاسم إذ أصابه تضخم فى القلب ، فأسلم الروح وهو يغنى فى فرحة بالخلاص :

الوداع	الوداع	يا جبال المهموم
يا ضباب الأسى	يا فجاج الجحيم	
قد جرى زورقى	فى الخضم العظيم	
ونشرت القلاع	فالوداع الوداع	

شاعِر الشَّبَابِ

أحمد رامی

فى أغسطس سنة ١٨٨٢ خرج أحمد رامى إلى النور ، فى بيت عتيق بحى الناصرية بالقاهرة ، وكان أبوه لا يزال يومئذ طالباً بمدرسة الطب .

ولد أحمد والنغم ملء أذنيه ، فهو يذكر فيما يذكر من خيالات الطفولة الأولى ، أن جماعة من أهل الفن والطرب ، كانت تلتقى دائماً فى مندرية بيت أبيه ، وأن أباه كان مشغولاً بالفن .

فلما تخرج الأب فى مدرسة الطب ، اختاره الخديو عباس الثانى ليكون طبيباً لجزيرة طاشيوز ، وهى جزيرة صغيرة على مقربة من مدينة «قولة» مسقط رأس محمد على (وكانت يومئذ من أعمال تركيا ، وهى الآن من أعمال اليونان) وكانت هذه الجزيرة ملكاً خاصاً للخديو عباس الثانى .

وإلى هذه الجزيرة، ذهب أحمد مع أبيه ، وقضى بها عامين كاملين . ذهب وهو فى السابعة ، وعاد وهو فى التاسعة ، وتلك هى سن التفتح فى أخيلة الطفولة .

وهكذا تفتح خيال الشاعر على غابات اللوز والنقل والفاكهة ، والبحر والموج والشاطئ ، وكانت ملاعبه هناك بين مروج الرجس الكثيفة ... هذه المروج التى كانت من قبله ملاعب لهومير وغيره من شعراء اليونان .

وعاد رامي من هذا الفردوس إلى القاهرة .

عاد ، وقد وعى التركية واليونانية ، وهما لغتا أهل الجزيرة ، وما يزال يعي طرفاً منهما حتى اليوم .

عاد من الفردوس إلى اللياب ، فقد ترك أبويه هناك ، وأقام عند بعض أهله في بيت يقع في حصن المقابر ، بحى الإمام الشافعى ، فاستوحشت نفسه ، وانطوت على هم وأسى عميقين .

والتحق آنذاك بالمدرسة المحمدية الابتدائية بحى السيوفية .

فلما عاد أبوه من طاشيوز ، عادت الأسرة إلى بيتها العتيق بحى الناصرية . بيد أن المقام لم يطل بأبيه ، الذى التحق بالجيش ، وسافر إلى السودان وتركه فى رعاية جده وهو شيخ فى السبعين ، يسكن حى الحنفى (القريب من الناصرية) فعادت أحمد الوحشة بعد إيناس ، لولا أن خففت حدثها على نفسه نافذة فى غرفته ، كان يطل منها على نخوم مسجد الحنفى ، ليستمع طول الليل إلى مجامع المتصوفة يتلون أورادهم ويرددون آياتهم واستغاثاتهم للمولى عز وجل فى نغم جميل .

وكان له قريب من بيت الرافعى ، وهو بيت علم وأدب وثقافة ووطنية . وكانت لقريبه هذا مكتبة عامرة ، أنس إليها أحمد ، فكان يقضى بها جل وقته . وكان أول كتاب سقط فى يده فقرأه وتشبع به وحفظه عن ظهر قلب ، هو كتاب « مسامرة الحبيب فى الغزل والنسيب » وكله مختارات من شعر العشاق الغزلين .

هذا الكتاب لعب دوره فى حياة أحمد وهو صبي ، فقد قرر مصيره إلى الأبد .

ثم قرأ فى هذه المكتبة .. قرأ كثيراً ... وكان قد أدرك مرحلة الدراسة الثانوية بالمدرسة الخديوية ، وتعلقت نفسه بحب الأدب ، وكانت هناك جمعية أدبية على مقربة مما يقيم بحى السيدة زينب ، اسمها « جمعية النشأة الخديوية » .

وكان فيها رواق للأدب مساء كل خميس ، تحضره جماعة من فحول ذلك الزمان ، منهم لطفي جمعة ، وإمام العبد ، وصادق عنبر ، ومحمود أبو العيون ، وطنطاوى جوهرى ، وغيرهم .

وتوسم المرحوم صادق عنبر فى أحمد الصغير خيراً ، وسمعه يتلو الشعر تلاوة طيبة ، فكلفه قراءة بعض الشعر القديم فى هذا الرواق الأسبوعي .

وواتته فى هذا الرواق فرصة سانحة ، قرأ فيها أول قصيدة من نظمه ، وكان يومئذ فى الخامسة عشرة .

* * *

تخرج رامى فى مدرسة المعلمين العليا ، سنة ١٩١٤ ، وعين مدرساً بمدرسة القاهرة الأهلية بالسيدة زينب ، وكان من زملائه فى التدريس بها ، الأستاذ الكبير محمد فريد أبو حديد رحمه الله .

وبعد عامين ، عين بمدرسة القرية الأميرية ، يدرس للنشأة اللغة الإنجليزية والجغرافيا والترجمة .

٣٣

وفي هذه الآونة - كان ذلك سنة ١٩١٨ - أصدر ديوانه الأول ،
أو على الأصح ، الطبعة الأولى من ديوانه ، لأن لراى طريقة فريدة
في نشر شعره ، ذلك أنه يراجع ديوانه في كل حقبة من عمره ، فيتخير منه
وينخل ويضيف ، ويعيد طبعه من جديد على الصورة التي ترضيه .

* * *

كان صدور ديوانه حدثاً أدبياً في ذلك العهد ، فقد طالع قراء
العربية بلون جديد في الشعر ، اختلفت فيه المدرستان القديمة والحديثة
يومئذ ، هذه تؤيده وتلك تلحاه ، هذه المعركة التي دامت في حقل
الشعر الحديث إلى عهد قريب .

وضاق راي بالتدريس ذرعاً ، فعاد مرة أخرى إلى رحاب مدرسة
المعلمين العليا حيث عين أميناً للمكتبة ، فاطمأنت نفسه وانصرف إلى حياة
علمية خالصة ، وانكب على ما في المكتبة من كتب في آداب العالم
الثلاثة ، من عربى وفرنسى وإنجليزى .

وهكذا ظل حتى سافر في بعثة إلى باريس لدراسة اللغات الشرقية
وفن المكتبات سنة ١٩٢٣ .

وفي باريس قضى عامين هما أسعد ذكريات شبابه ، في جامعة
السوربون ، وكأنه كان هناك على موعد مع شاعر التاريخ عمر الخيام
كما سنفصل فيما بعد .

وعاد راي بعد العامين إلى القاهرة حيث عين بدار الكتب المصرية
وظل يتدرج في مناصبها ثمانية وعشرين عاماً ، حتى أصبح وكيلها ،

وقد جاوز الستين ومع هذا فإنه لا يزال يلقب في الصحف والمنتديات
بشاعر الشباب .

وقصة هذه التسمية ، أنه كان في أوليات أيامه ينشر شعره بمجلة
الشباب ، لصاحبها المرحوم عبد العزيز الصدر ، الذى خلع عليه لقب
شاعر الشباب نسبة إلى المجلة .

وبقيت التسمية عالققة برأى حتى اليوم .

* * *

مارس رأى ثلاثة ألوان من الأدب :

الشعر الوجدانى ، والعاطفى ، والوطنى .

ثم أدب المسرح ، فقد زود شاعرنا المسرح المصرى بذخيرة ضخمة
تبلغ نحو خمس عشرة مسرحية من مسرحيات شكسبير الخالدة ،
سهر على ترجمتها بأمانة وإشراق ، ومنها هملت ويوليوس قيصر
والعاصفة وغيرها مما قدمته مسارح يوسف وهبى وفاطمة رشدى فى زمن
غرة المسرح .

ثم انتهى إلى نظم الأغنيات ، وبهذا اشتهر وطار ذكره ، حتى
أوشك الناس أن ينسوا رأى شاعر الفصحى ، ورأى كاتب المسرح ،
ولم يدكروا إلا شاعر الأغانى .

* * *

أحب أن أتحدث عن رأى كأديب شعبى ...

وقد يفرض علينا هذا التحديد ألا نتناول شعره الخالص ، مما لا يدخل

فى نطاق الشعبية . بيد أن الناقد لا يستطيع أن يتناول الناحية الشعبية فى رأى إلا إذا درس نفسية هذا الشاعر عن طريق شعره .

تفاعلت فى نفس رامى ، منذ طفولته إلى آونة نضجه ، عوامل عدة ، أبهرها تلك المروج الفيحاء من الرجس ، التى تفتح عليها خياله فى جزيرة طاشيوز ، ثم تلك الوحشة التى أملت به بين القبور ، ثم تلك الصوفية التى عاشت روحه فى حى الحنفى ، ثم ذلك الكتاب الذى كان أول ما قرأ « مسامرات الحبيب فى الغزل والنسيب » .. ثم صحبته لشاعر التاريخ عمر الخيام . ثم كلفه بأم كلثوم .

هذه فيما أرى ، هى العناصر التى اشتركت فى تكوين هذا الشاعر وجعلته مجموعة من الانفعالات العاطفية التى تسيل تشوقاً وتصوفاً وعلوبة ورقة .

وقد ثارت فى وقت من الأوقات حملة من حملات النقد تقسم الأدب إلى باين : باب القوة وباب الضعف . وقيل يومئذ إن شعر رامى بما فيه من لطفة على الحب ، وما يزخر به من دموع وتأوهات ، ينهض نموذجاً لأدب الضعف .

وهذه قولة سخيقة ، لو أننا أخذنا بها لجعلنا أخلد الشعر العاطفى فى التاريخ من أدب الضعف . وإنى لأرى أن الضعف ليس هو الذى يمتلئ بالعاطفة ويلتهب بالخرقة على الحبيب ، وإنما أدب الضعف هو ذلك الذى يسوق اللفظة السقيمة أو المعنى الواهى أو الخيال الممجوج . وإنى لأرى أن أدب القوة ، ليس هو الذى يتحدث عن الجهاد

والجلاد والقلاع والحصون بغير عاطفة ، وإنما أدب القوة هو ذلك الذى يكون مصدره القلب ومنبعه الوجدان ، وثوبه اللفظة الحلوة والمعنى الشائق .

وأدب رابى ، على هذا القياس الصحيح ، أدب قوة لا أدب ضعف ، لأنه أدب صدق ، مستمد من أعماق نفسه ، ومن روحيات خياله ، ومن شوايخ ثقافته .

وصحيح أن أدبه حافل بالآئين ، غارق فى الدموع ، ولكن ماذا تطلب منه ، وهذه حياته كلها تشوف وحشة وأين والتياح ؟
أمن العدل أن تطلب شاعراً هذه حياته ، بأن يتحدثنا عن السيف والدم ؟
إن الشاعر الصحيح هو الذى يجعل شعره صورة لحياته ومرآة لنفسه .
فاستمع إلى رابى يتحدث لك لماذا كان شاعر الدموع ، فى قصيدة عنوانها
« شعر الدموع » :

يقولون ما هذا الشحوب الذى نرى	بوجهك ، بل ما هذه النظرات ؟
فقلت لهم إني دفنت نضارتي	وقد ضربت فى قلبي الظلمات
تشرذ لحظي ، ثم غشته ترحمة	كما غشيت شمس الضحى المزناات
لقد كان براقاً وقد كان صاحكاً	فراح بريق اللحظ والضحكات
وما العين إلا باب قلبى ترويه	أفيه بكاء أم بهه بسيات ؟

* * *

كانت أم كلثوم حدث الأحداث فى حياة رابى .
كانت قدراً عليه ، غير طريق حياته .

عاد في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وكانت الأغاني المصرية يومئذ قد بلغت حضيض الإسفاف والانحلال ، مثل أغنيات « أرشى الستارة اللي في ريحنا . . أحسن جيرانك تبحرنا » و « إيه اللي جرى في المنذرة . . شيء ما اعرفوش . . دانا كنت لسه صغيره » و « تعالى بات . . يوم التلات » . . و « إوعى تكلمنى . بابا جاي ورايا » و « شفتي بتاكلنى أنا في عرضك » . . إلخ .

عاد رامي من باريس ، وسمع هذه الأغاني ، وسمع شقيقاته ، وهن لم يزلن يومئذ صغيرات السن مدلات الصبا ، يرددن هذه الأغاني كما حفظنها من الحاكى ذى البوق الذى كان شاعراً في تلك الأيام ، فعزّت عليه تلك الجناية على أخلاق الجيل ، وهو الذى سمع في باريس روائع الشعر الغنائى ، كما سمع في منذرة أبيه من قبل بدائع غنائيات الجيل الأسبق ، جيل مصطفى نجيب وإسماعيل صبرى والشيخ الليثي وأقربهم .

وتشاء المصادفة أن يزوره في هذه الآونة صديق له ، ويدعوه إلى سماع المغنية الناشئة القادمة من الريف ، تغنى في جوسق في الهواء الطلق بمحديقة الأزبكية ، بلا أوركسترا ولا نخت !
كان اسمها : أم كلثوم .

وكان هذا في يومه الثالث في القاهرة ، بعد عودته من باريس ،
وتاريخه : ٢٦ يوليو سنة ١٩٢٤
وراح ليسمع ، فإذا هي تطالعه بمفاجأة حياته .

إنها تغنى قصيدة له هو بالذات ، مطلعها :

الصَّبّ تَفَضَّحَ عَيْنُهُ وَتَمَّ عَنْ وَجَدِ شَوْوْنِهِ

وكان اللحن لخير من لحن القصائد ، المرحوم الشيخ أبو العلا محمد .

ورجع رأى من عندها فى تلك الليلة مأخوذاً بحلاوة الصوت وبراعة الأداء ، ولم يَمِ ليلتها إلى الصباح .. فقد أزعج أمراً .

لقد عرف أنه وجد الأداة الكفيلة بتحقيق الرسالة الكبرى ...

الانقلاب العظيم فى الأغاني المصرية .

وكان لم يزجل إلى ذلك اليوم . ولكنه وجد نفسه مسوقاً إلى أم كلثوم ، يصلح لها طقاطيقها القديمة ويهذب ألفاظها .

ثم زجل ... زجل فى أول مقطوعة نظمها خصيصاً لها وهى :

خَافَ يَكُونُ حَبْكَ لى شَفَقَةً عَلَى

وَأَتَى اللى فى الدنْيا دِيهِ ضَى عَيْنِي

ونشرت هذه الأغرودة فى أسطوانة طبعت سنة ١٩٢٥ ، فكانت حدثاً فى الغناء المصرى .

واتصلت حياة رأى منذ يومئذ بحياة أم كلثوم .

وقد شهد الزجل الغنائى لأول مرة فى تاريخ الفن المصرى ، بحور الشعر تستخدم فيه جميعاً ، ومعانى الشعر تؤم ، وأخيلة الشعر تعمم ، والألفاظ الشعرية الرقيقة تنزل إلى ميدان الزجل الغنائى لأول مرة على يد رأى .

شاعر مملكة النحل

أحمد زكي أبوشادي

أبولو ، مرحباً بك يا أبولو
 فإنك من عكاظ الشعر ظل
 عكاظ وأنت للبلغاء سوق
 على جنباتها رحلوا وحلوا
 وينبوع من الإنشاد صاف

صدى المتأدين به يبل
 هذه الأبيات الثلاثة هي مطلع القصيدة الرائعة التي نظمها أمير
 الشعراء شوقي في تحية جمعية «أبولو»... أول جمعية أنشئت لخدمة
 الشعر العربي الحديث سنة ١٩٣١ .

وكان منشئها هو الشاعر الذي نعتة الأنباء من أمريكا في سطور
 قليلة لم تجد صداها إلا عند نفر قليل من ذاكرى فضل هذا الرجل :
 أحمد زكى أبو شادى .

وقد نشرت هذه التحية الشوقية بالعدد الأول من مجلة «أبولو»
 التي أصدرها أبو شادى يومئذ لتتلقى بلسان الجمعية ، وتتنظم خرائد
 الشعراء المعروفين ، وتكشف عن المواهب المغمورة في مصر والسودان
 والمشرق والمغرب العربيين والمهجر الأمريكى ، وتولى النقد الأدبى
 عنايتها بأسلوب علمى مستحدث .

وقد استطاعت هذه الجمعية التي أسندت رياستها إلى أمير الشعراء

ثم من بعده إلى شاعر الأقطار العربية خليل مطران، أن تستحدث ثورة في عالم النقد، وأن تنشئ مدرسة جديدة في الشعر العربي الحديث، تسمو برسالة الشعر عن أن يكون أداة للمدح أو للقدح أو المناسبات، وتجرده من التقليد، وتنادى بوحدة القصيد، وتخلق فوق الذرى العالمية.

وفي هذه المدرسة، لمعت أسماء خالدة في سماء الشعر العربي، كإبراهيم ناجي وعلي محمود طه وم. ع. الهمشري وأبو القاسم الشابي والتهيجاني يوسف بشير، من الراحلين، وعشرات غيرهم من الأحياء. كما لمعت في عالم النقد أسماء أخرى أخص بالذكر منها الدكتور رمزي مفتاح الذي أثار معركة من أكبر معارك الأدب في ذلك الجيل بكتابه «رسائل النقد».. والأديب العراقي الراحل الدكتور مصطفى جواد.. وغيرهما.

* * *

والشاعر أبو شادي، هو ابن المجاهد الكبير المغفور له محمد بك أبو شادي، الذي كان من أساطين الوفد في عهد سعد، ومن زعماء الحركة الوطنية والثورة المصرية سنة ١٩١٩، وكان إلى جانب هذا شيخ المحامين في عصره.

وفي حياة شاعرنا كل ما نراه في شعره من هيام بالجمال. كان كل جمال يلهب شاعريته. ولكن القصبتين اللتين عاشتا في قلبه إلى أن لقي وجه ربه، هما اللتان أرويهما هنا.

ولدت القصة الأولى في يوم يتمه ، أو بعد ذلك بقليل ، حين ودعت أمه الدنيا ، فتزوج أبوه سيّدة من بيت معروف . وكانت لها ابنة من زوج سابق .

كان الشاعر يومئذ في ميعة الصبا ، طالباً بمدرسة الطب . وذاق لوعة فقد أمه ، وضاعفت اللوعة قسوة زوجة أبيه عليه . ولكن بارقة من الحنان هدهدت قلبه ، ومسحت دمه... هي تلك الصغيرة التي أشرقت على حياته في البيت ... ابنة زوج أبيه . كانت طفلة شاعرية حاملة ، إذا تحدث إليها ، أصغت إليه واستجابت له ، واستلهمها فألهمته .

وأترك لك أيها القارئ أن تتصور قسوة الصراع في هذا البيت ، وفي هذه النفس ، وأنت تتأمل صبيّاً شاعر الروح ، في حيرته بين قسوة هذه السيّدة عليه ، وحنان ابنتها عليه !

أو أن تتأمل ما يعتمل في نفس الصبية الحلاوة ، وهي تحب أمها ، وتحب شاعرها ، ولكنها حائرة بينهما إذ هما في هذا الصراع .

وتزداد قسوة الموقف ، حين تعلم زوج أبيه بأمر هذه العاطفة المشبوبة بين الصغيرين ، فتثور ثورة طاغية ، وتصر على ألا يبقى الصغير في البيت .

ويحار أبوه ، بين عاطفته نحو ولده وبين إرضاء زوجه فيحاول أن يحول دون اطراد هذه العاطفة ، على غير طائل ، فلا يجد مخرجاً من الموقف إلا بأن يوفق بين رغبة زوجه وحرصه على مستقبل ولده

٤٣

بإخراجه من مدرسة الطب في مصر ، وإيقاده لاستكمال دراسته في إنجلترا ، لعله ينسى مأساته العاطفية هناك .

* * *

ذهب الشاعر الشاب إلى إنجلترا ، فلم ينس ، بل ازدادت الوقدة في قلبه ، ولكنها كانت وقدة واعية حملته على مضاعفة جهده والتحصيل والاستيعاب ، حتى برز أقرانه من الإنجليز ، وفاز بمرتبة الشرف في البكتريولوجيا

وكانت غاية هذا الجهد أن يظفر بشهادته ، ليعود مسرعاً إلى الظفر بليلاه في القاهرة .

ولكن الأقدار رسمت غير ما رسم ، فقد جاءه النبأ الذي كان يصفه دائماً بأنه أكبر نازلة في حياته .

لقد تزوجت ليلاه ...

ولم يطق الشاعر احتمال هذا النبأ بعد عناء هذه السنين ، فتمثلت له القاهرة ظلاماً يائساً ، وقر رأيه على أن يختار لنفسه المنفى ، واستقرت به النوى في « أيلنج » من ضواحي لندن ، حيث أنشأ معملًا بكتريولوجيًا ، وظل هناك موزع القلب بين عمله وأمله .

وفي غمرة هذا اليأس ، انتابه السقم وعدا عليه الهزال . ولكن يداً رقيقة حانية ، امتدت إليه تجفف عرقه وتمسح دموعه ... هي يد شابة إنجليزية كريمة امتلأ قلبها بالعطف عليه ، وما لبث هذا العطف من ناحيتها أن أصبح جسراً عاطفياً إليه ، فأحبته وأولته كل جميل .

أما هو ، فقد أحس بهذا الحنان الذى حرمه منذ عهد طويل ، فلم يملك بإزائه إلا لاد الحميل ، فطلب يدها ، فامتدت إليه راضية .
وعاد بها إلى مصر ، وسكننا بيتاً هادئاً فى ضاحية المطرية ، ورزق منها ثلاثة : رمزى (وهو الآن موظف بسكرتيرية الأمم المتحدة بنيويورك) وصفية ، التى أخذت عن أبيها شاعريته ، وقد أصدرت ديواناً من القصائد الشعرية فى واشنطن حيث تقيم (وتعمل بالسفارة . السعودية) وهدى ، التى تطوعت للعمل ببحرية الولايات المتحدة عقب صدمة عاطفية ، ثم تزوجت طبيباً بحرياً أمريكياً ، وقد اختيرت منذ سنوات ملكة جمال للبحرية الأمريكية .

* * *

عرفنا من نواحيه حتى الآن أنه شاعر وطبيب بكتريولوجى .
وبقى بعد هذا أن نثبت نواحيه الأخرى . . .
كان أبو شادى صغيفاً متعدد الجوانب ، يصدر خمس مجلات فى وقت واحد ، والأعجب من ذلك ، أن كل مجلة من هذه الخمس ، كان لها لونها الفريد البعيد كل البعد عن الأخباريات .
كانت أولاهها « أبولتو » للشعر . . .

وكانت الثانية « مملكة النحل » لسان جمعية النحالين المصريين .
وقد كان أبو شادى ملكاً للمملكة النحل فى مصر ، ورائداً من رواد النحالة فى العالم بأسره ، وله فى هذا الباب جهود ضخمة وبحوث كثيرة أشهرها بحثه الذى دعا فيه إلى تحويل واحدة سيوة إلى محطة عالمية للنحالة

تغل للثروة القومية دخلاً لا يقل عن عشرة ملايين من الجنيهات كل عام !

وكان يحلوه أن يحب هذه المملكة إلى أصدقائه الشعراء ، ويعرفهم على أخلاقها ، ومن أبرز آثاره في هذا المسعى ، قصيدة أمير الشعراء الراقية في وصف مملكة النحل .

والحجلة الثالثة هي « الدجاج » لسان جمعية الدواجن المصرية ، وقد كان من كبار المربين للدواجن العالمية ، ودعاة استجلابها وتربيتها في مصر . وكانت في حديقة بيته بالمطرية مزرعة للدواجن الفاخرة إلى جانب النحل .

والحجلة الرابعة « الصناعات الزراعية » لسان جمعية الصناعات الزراعية المصرية ، التي بشرت بدعوة التصنيع الزراعي في مصر . والحجلة الخامسة هي « الإمام » التي أصدرها خصيصاً لرفع راية الأدب الشعبي في مصر . وكان محررها الأساسي في أول عهدها هو الأديب الشعبي الراحل ، محمود بيرم التونسي .

كان بيرم يومئذ في باريس ، منفياً من مصر ، مغضوباً عليه من القصر ، لأنه طعن الملك فؤاد في عرضه ، وطعن فاروق في نسبه ، ولكن أبا شادى جعله المحرر الأول لحجلة « الإمام » بالمراسلة ... غير مبال بما يجر عليه هذا الاختيار من سخط القصر ورب القصر ورجال القصر .

وما يجمل ذكره في هذه المناسبة أن أبا شادى هاجر إلى أمريكا

قبل ثورة بلخيش بعدة سنوات ، ولكنه أخذ نفسه برسالة الأحرار قبل قومتهم بجيل من الزمان .

ومنذ يومه الأول في أمريكا ، راح في الصحف العربية التي تصدر هناك يهاجم الملك والإقطاع والأحزاب وفساد الحكم في مصر ، ويدعو إلى الثورة ... الثورة التي تحققت بعد ذلك بأربع سنوات .

على أنه لم ينقطع عن رسالته الأدبية هناك ، فقد أجال قلمه في صحيفة « الهدى » العربية التي كانت تصدر في نيويورك ، وفي غيرها من الصحف ، وفي إذاعة صوت أمريكا . تحدث كثيراً عن مصر وعن الأدب الجديد ، وعن الإسلام ، واستحدث نشاطاً أدبياً ضخماً بين أدباء المهجر الأمريكي .

ولما قامت ثورة يوليو . حاول عارفو فضله أن يردوه إلى مصر ، ولكن المرض كان قد أنقل عليه . وكان أولاده قد نظموا حياتهم على المقام هناك ، فاستسلم للمنى إلى أن لقي وجه ربه في ١٢ أبريل سنة ١٩٥٥ .



أمير الشعراء

أحمد شوقي

شارع من أقصر شوارع مصر ... لا يمتد إلى أكثر من بضعة خطوات في ضاحية الجيزة ، هو كل ما خلدنا به ذكر أعظم شاعر في تاريخ مصر .

إنه شارع « أحمد شوقي بك » ... الشاعر الذي مال كما تميل الشمس في ضحاها ، يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ .

... هناك ... تقوم « كرمة ابن هاني » على رأس الطريق ، مظلة بحديقته ونوافلدها وشرفاتها على ضفحة النيل الخالد ، كأنها تسألله بلسان ربها الراحل :

من أي عهد في القرى تتدفق ؟

وبأي كف في المدائن تغدق ؟

ومن السماء نزلت ؟ أم فُجِّرت من

عليا الجنان جداولاً تترقق ؟

* * *

هذه كرمة ابن هاني .. مهبط الوحي على أمير الشعراء . وعندما زرتها لآخر مرة في سنة ١٩٦٠ ، كانت روحه الخالدة لا تزال مرفوفة هناك في كل غرفة ، ولا تزال منه قطعة عزيزة في كل ركن .. وأعزها من بقية الأسرة هناك ، هذه العقيلة الكريمة المعتكفة في ركن من الحديقة أكثر أيامها ، تصلى في محراب الذكريات .

هذه السيدة الجليلة ، عقيلة شوق ، سليفة بيت ذى تراث عتيده من تقاليد تركيا القديمة والشرق والإسلام ، فرساتها فى الحياة ، أنها زوجة وأم وربة بيت ، ولا صلة لها بعدئذ بالشعر ، إلا صلتها بالشاعر كزوج ، ولا صلة لها بالدنيا إلا بالبيت الذى يؤويها لاتفارقه ، وأقصى حدود دنياها باب هذا البيت ؟

وكانت هذه الكريمة - يوم زرت الكرمة لآخر مرة - فى رعاية ولدها حسين الشاعر الرقيق الذى غنى له عبد الوهاب من شعره قصيدة مرهفة مطلعها :

سهرت منه الليالى ما للغرام ومالى
والناثر الأنيق ، صاحب « صديقي رينان » و « أبى شوق » .
وأما ولدا شوق الآخران ، على وأمينة ، فقد غادرا البيت منذ زمان طويل ، ليبنيا بيوتاً أخرى تضم أكباد أكباد أمير الشعراء .

* * *

شوق اتهمه خصومه بأنه تركى ، لا مصرى ولا عربى .
وهذه تهمة فى أكثرها باطلة ، إن صحح يكون نسب المرم ،
الذى لا دخل له فيه ، تهمة عليه .
فشوق - كما يقول بنفسه فى مقدمة الطبعة الأولى من الشوقيات -
ينحدر من جد عربى ، اختلطت به بعد ذلك فروع تركية وكردية
وجركسية ويونانية . فهو كأكثرنا نحن المصريين ، مزاج لطيف من
عناصر الشرق والشعر . فإن نحن أنكرنا عليه مصريته ، فلنما ننكرها

على أكثر المصريين وأشرفهم مصرية ، وأصدقهم وطنية ، ولست أعرف
مصرياً صميماً قال مثلما قال شوقي في مصر :

وطني لو شغلت بالخلد عنه

نازعتني إليه في الخلد نفسي

فهذا الشاعر الذي ينازعه الشوق إلى مصر وهو في الخلد ، لا يجوز
أن يتهم في مصريته .

* * *

أما الأرقام والحقائق في حياته ، في عجالة ، فهي أنه ولد بحى
الحنفى بالقاهرة سنة ١٨٦٨ (وقيل ١٨٧٠) ، والتحق بمكتب الشيخ
صالح ، ثم بالمدرسة الخديوية ، ثم بمدرسة الحقوق (قسم الترجمة) ،
ثم سافر إلى فرنسا لدراسة الحقوق والآداب سنة ١٨٨٧ ، وعاد منها
سنة ١٨٩١ ، ونفى إلى أسبانيا سنة ١٩١٥ ، وعاد منها سنة ١٩١٩ .

فإن شئت مزيداً من قصة نشأته فهو ابن أبيه « على شوقي »
وكان « على » قد ورث عن والده مالا كثيراً بدده في سكرة الشباب ،
ويقول شاعرنا في ذلك « ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم .. وكأنه
رأى لي كما رأى لنفسه من قبل ، ألا أقتات من فضلات الموتى » ا

وأخذته جدته لأمه تكفله .

ودخلت به يوماً على الخديو - وكانت من معتوقاته - وهو في الثالثة
من عمره . وكان بصره لا يتزل عن السماء ، فطلب الخديو بدرة من

الذهب ، ونثرها على البساط عند قدميه فوقع الطفل على الذهب
 يتطلع إليه ، ثم يجمعه ويتلهى به ، فقال الخديو بلحته « اصنعي
 معه مثل هذا ، فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض ! »
 قالت السيدة الذكية : « هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك »
 فقال لها : « جيئي » إلى به متى شئت ، فإني أعز من ينثر الذهب في
 مصر » .

ويبدو أن جدته لم تذهب به كثيراً إلى هذه الصيدلية ، فقد عاش
 شوق ما عاش ، يخلق في السماء بعينين رجراجتين زئبقيتين لا تفران
 على قرار ، حتى كان الشيخ على الليثي كلما رآه ذكر من قول المتنبي
 هذا المصراع « محاجر مسك ركبت فوق زئبق » .

• • •

لم يسجل التاريخ للخديو توفيق شيئاً من الإحسان في تاريخ هذا
 البلد . فقد كان ضعيفاً خائر العزم ذليلاً للمستعمر . ولكني أحب أن
 أسجل لتوفيق حسنة واحدة .. حسنة يتيمة في حياته .. تلك هي
 أنه اشترك في إعداد شاعرية شوقي ، فقد أحسن جزاءه بعد تخرجه
 في قسم الترجمة بمدرسة الحقوق ، وأوفده في بعثة إلى باريس ، وأمره
 أن يبقى هناك أربع سنوات يحظر عليه أن يعود خلالها إلى مصر ، وأمره
 أن يقضيها بين النظر في آداب الغرب ، وحياة الناس هناك ، والتنقل
 بين مونيبييه وباريس ولندن وغيرها من الحواضر .

وهناك تفتحت عينا شوقي على ألوان من الجمال في الحياة والآداب

والفن ، ففتق خياله ، وفتحت له آفاق جديدة ما كانت لتفتح له
لو بقى فى مصر ، شاعراً ناشئاً يعيش فى إسطار القصر ، وكل رسالته
فى الحياة أن يرفع مدائح للأعتاب الحديدية .

* * *

هذه حسنة توفيق اليتيمة ...

والحسنة الأخرى ليست له ، وإنما هى للإنجليز ...

حسنة من حيث لا يقصدون . ذلك أنه عقب خلع عباس الثانى
وقيام الحرب العالمية الأولى ، تنكر الناس لشوقى شاعر العهد
الذاهب والعزى المخلوع ، وتحاشوه ، وقلّ زوار الكرمة الذين طالما
قضيت لهم فيها حاجات ومطالب .. ويقول حسين شوقى :

« بل صار الأصدقاء يخشون لقاء أبى كى لا يهتمهم أحد عند
الإنجليز أو عند السلطان الحديدى بمصاحبة أحد رجال النظام الحديدى ..
مسكين أبى .. تألم هذه الحال ! لذلك قابل بارتياح حكم السلطة
العسكرية فى ذلك الوقت حينما كلفته مغادرة الوطن سنة
١٩١٥ » .

وذهب شوقى إلى منفاه ..

وعندما غادر محطة القاهرة ، لم يكن فى وداعه إلا قلة من الأقارب
والأصدقاء ، حتى لقد شكر المنى .. الأندلس .. التى أزاحت عنه
غمة هذا الجحود ..

فقال :

شكرت الفلك يوم حويت رحلى
 فيا لمفارق شكر الغراب
 فأنت أرحنى من كل أنف
 كأنف الميت فى النزع انتصاباً
 ومنظر كل خوان يرانى
 بوجه كالبغى رى النقاب
 وليس بعامر بنيان قوم
 إذا أخلاقهم كانت خراباً

* * *

وهناك ... فى ظلال إسبانيا ... قضى شوقى خمس سنوات ، رأى
 فيها عوالم جديدة ، وراجعته قصة الأندلس والمجد العربى الذاهب فيها ،
 وقصص ملوك الإسلام الأقدمين وحكاياتهم هناك ، ومفاتيح الشعر العربى
 فى الأندلس ، بألوانه الزاهية وبحوره المعقدة وأوزانه الراقصة ...
 كل هذا لعب فى شاعرية شوقى دوراً جديداً وأضاف إلى قيثارته
 أوتاراً حبيبة .

* * *

وكانت الكأس أولى هواياته ..
 وحدثنى رابى - وكان قريباً إليه - قال :
 إن شوقى كان خبيراً بالأنبذة ، يتخير أجودها ويختذب بها أصدقاءه
 إلى مائدته ، لأن شوقى كان لا يعود إلى بيته بعد جولة الصباح إلا وقد

محبب معه صديقاً أو أكثر من صديق ، يشاركه في غذائه .
وكانت له حانات مأثورة في القاهرة ، أشهرها « صولت »
و « لابروميناد » و « دلبانى » . والأخيرة كانت تقوم عند ركن خارجى
من مبنى فندق سميراميس الحالى ، وكان أمامها موقف للعربات
ذات الجياد .

قال رامى : « وكنا نجلس عند دلبانى ، فيرشف شوقى رشفة
من كأسه ثم ينسل فى هدوء ، فيركب عربة تدور به حول الجزيرة ،
ثم يعود فيملى على عدة أبيات .. ورشفة أخرى .. ثم دورة أخرى
حول الجزيرة ... ثم عدة أبيات أخرى .. ولا تنهى الليلة إلا بقصيدة
قد تتجاوز مائة بيت » !

هكذا كان الشعر مطواعاً له ، لا يكلفه نظمه أقل عناء ، إلى حد
أن قصيدة « النيل » وهى من خير قصائد حياته ، بل لعلها فى الطليعة
من الشعر العربى كله - وقوامها ١٥٠ بيتاً - نظمها أمير الشعراء فى ليلة
واحدة !

* * *

هل فى الحياة إنسان لم يعرف الحب ؟
فبالك إذن بشاعر .. بل بأمير الشعراء ؟
ومع هذا ، فإنك تقرأ ما تقرأ مما كتب الكتاب عن شوقى ، فلا
تستطيع أن تهتدى إلى امرأة بالذات ، لعبت دوراً فى حياته العاطفية .
وتقرأ ما تقرأ من شعر شوقى ، فترى فيه للغزل نصيباً ، وإن لم يكن

موفوراً ولا محرقاً ، فإنه سلسال أنيق .
 ولكن الذى يحبرك دائماً أن غزليات شوقى لا ترسم 'صورة واضحة
 المعالم لامرأة معينة فى قلبه .
 وأسأل ولده حسيناً : « ألا تعرف لأبيك قصة غرام ، فحرام
 أن يحرم التاريخ من الوقوف على مثل هذه القصة ؟ » .
 فيجزم حسين بقوله : « بكل أسف ، إنه لم يحدثنا طول حياته بشيء
 من ذلك ، مع كثرة تبسطه معنا فى كل شيء » .
 وأذهب لألتمس الحقيقة من أصحابه الذين عاشروه ، فلا أهنأ
 إلى جواب ناصع . ويقول لى راي : لقد تحدثنا فى هذا مرة ، فقال لى
 (مالك تصنع بنفسك هكذا يا راي ؟ تنقل بين هوى وهوى ، وخلد من
 كل حسن معناه ، وكن كالعصفور الذى لا يستقر على غصن
 واحد . فإن النساء معان ، فلا تقصر نفسك على معنى واحد) ...
 ومصادق هذا القول واضح فى شعر شوقى .
 سئل مرة أيهما يؤثر فى الحمر ، الويسكى (ولونه يميل إلى الصفرة)
 أم الكويناك ، (ولونه يميل إلى الحمرة) ؟ فردد بيتاً له من قصيدته
 المشهورة « رمضان ولى » :
 حمراء أو صفراء ... إن كريمها
 كالغيد ... كل مليحة بمذاق !
 وهكذا ترى أنه يردد نفس المعنى الذى قاله لراي ، ويؤثر أن
 يتذوق كل لون من ألوان الجمال ، ولا يتقيد بمليح واحد .

ويضيف رامي أن شوقي كان يفضل السمرات ذوات القسبات المصرية ،
الضامرات في غير سقم ، الشاحبات في غير ضعف .

* * *

وقد لقي شوقي في حياته حرباً كثيرة ...

لقى حرباً من طه حسين ، والعقاد ، والملازني ، وعبد الرحمن شكري
وأنصلوهم جميعاً .

ثم لقي حرباً رخيصة من أصحاب الصحف الصغيرة طمعاً في ماله .
سمعت من المرحوم أحمد فؤاد صاحب جريدة « الصاعقة » ...
الملقب بفؤاد الصاعقة .. أنه كان كلما أعوزه المال ، أوفد إلى شوقي
رسولاً يخبره بأن فؤاد الصاعقة سوف يهاجمه .

وكان شوقي يفرغ من النقد ، فكان إذا سمع هذا ، أوفد إلى صاحب
الصاعقة من ينقحه بما شاء من المال ليسكت عنه .

ومع هذا كان فؤاد الصاعقة يعبد شوقي ، ويحفظه عن ظهر قلب ،
كما كان يحفظ ثلاثين ألف بيت على الأقل لغيره من أعلام الشعر
العربي .

ولقي شوقي كذلك حرباً عواناً من بعض الصحف الكبيرة ، لظروف
قاسية شتى ، منها صلاته الوثيقة بالقصر ، وخصومته في بعض الآونة
لسعد زغلول ، وصلة المصاهرة التي ربطته بإسماعيل صدق ، وكان
الكتاب يومئذ يمتد بخلاطون بين الأدب والسياسة ، ولا يفرقون بين شوقي

الشاعر وشوقي صهر إسماعيل صدقي .

* * *

وقد ذكرت بعض أسماء أحب أن أعود إليها في قصص لا يجوز
إسقاطها من حياة شوقي :

بطرس غالى :

كان ذا يدٍ على شوقي . رثاء رثاء لم ينس فيه حساب الوفاء ، ولانسى
حساب الوطن .

قتل بطرس غالى بيد الوردانى ، بعد موقف معروف في قضية مصر ،
وفي قضية قناة السويس بالذات . فثار بعض إخواننا الأقباط ، وأوشكت
الفتنة أن تضطرم والفرقة أن تكون ، فقال شوقي في قصيدة طويلة :

بنى القبط إخوان الدهورريدكم

هبوه يسوعاً في البرية ثانيا

حملتم لحكم الله صلب ابن مريم

وهذا قضاء الله قد غال غاليا

تعالوا بنا نطوى الجفاء وعهده

وننبذ أسباب الشقاق نواحيا

ألم تكن مصر مهدنا ثم لحدنا

وبينهما كانت لكل مغانيا ؟

ألم نك من قبل المسيح ابن مريم

وموسى وطه نعبد النيل جارياً ؟

فهلا تساقينا على حبه الهوى
وهلا فديناه ضفافاً ووادياً ؟
ومازال منكم أهل ود ورحمة
وفي المسلمين الخير ما زال باقياً
هذه الشوقية غير المشهورة ، أعدّها من أجلّ الأعمال الوطنية في
تاريخ مصر الحديث .

سعد زغلول :

كانت هناك جفوة بين شوقي وسعد في بعض الآونة . ولكن تقدير
كل من الرجلين للآخر لم يتأثر بهذه الجفوة في يوم من الأيام . بل
إن كلاهما كان يطوى صدره على ودّ كامن للآخر ، تحول دون
إظهاره قسوة الظروف .

فإن أردت مصداقاً لهذه الحقيقة ، فحسبك أن تعرف أن سعداً ،
يوم زفاف على بن شوقي ، أجل البرلمان ساعة كاملة ليحضر الحفل
وهذا شيء لا نظير له في تاريخ البرلمانات .

وحينما ذهب ، وجلس مع شوقي ، أخذت لهما صورة معاً .
وقال الأستاذ الجديلي ، وهو يومئذ سكرتير سعد : « هذه صورة
الحالدين » .

فابتسم سعد ، وأشار إلى شوقي قائلاً : « هنا الخلود ! »

٥٩

وخرج سعد ، فقال شوقي : « حقاً إنه لزعيم حائز لكل صفات الزعامة . قيل له : « وما صفاتها ؟ » قال : « أن يكون الزعيم على بسطة من العلم والجسم ، قوياً على نفسه ، جريئاً في الحق ، خبيراً بمختلف الشؤون السياسية والقانونية ، قوياً وليس بقاس ، رحيماً وليس بضعيف ، خطيباً قوى الحنجرة ، حسن البيان والإلقاء ، يقدر الكبير من أعوانه ، ولا يجرح صغيرهم وقبل ذلك أن يكون حسن الوجه ، فلم يرسل الله نبياً قبيح الخلقة قط » !

* * *

ويجوزنا ذكر سعد إلى حديث عن شقيقه فتحى زغلول .
كان فتحى زغلول شيئاً غير سعد .
وحسبنا من أمره أنه كان قاضى دنشواى ، وعون الإنجليز على شهادتنا .

وحين رقى إلى منصب وكيل الحقانية (العدل الآن) مكافأة له من الإنجليز على أحكامه فى قضية دنشواى . أقام له الوصوليون حفلة تكريم فى فندق شبرد (القديم) ودعوا شوقي إلى أن يساهم فى الحفلة بقصيدة ، فظل يسوفهم ، ويسوفهم إلى أن استأثروا ، فإذا بهم يفاجأون بظرف يصل إلى شبرد قبل بدء الحفلة بلحظات ، وبداخله هذه الأبيات :

إذا ما جمعتم أمركم وهمتمو
بتقديم شئى للوكيل ثمين

خذوا حبل مشنوق بغير جريرة
وسروال مجلود وقيسد سجين
ولا تعرضوا شعري عليه فحسبه
من الشعر حكم خطه يمين
ولا تقرءوه في شبرد « بل اقرءوا
على ملا في دنشواى حزين

وشوقى هو شاعر الدنيا
وهو شاعر الفراعنة والعرب . .
وهو شاعر الأقباط والمسلمين ..
كانت مصر ، بكل ما يحفل به ماضيها ، وما يجتازه حاضرها ،
وما يؤمل لمستقبلها ، أقوى مادة للإلهام عنده .
وملحمته الخالدة « كبار الحوادث في وادى النيل » التي ألفها
في المؤتمر الشرقى الدولي للتعقد في مدينة « جنيف » في سبتمبر سنة
١٨٩٤ كممثل للحكومة المصرية ، من أروع الملاحم في تاريخ الشعر
العربى جملة ، فهي تروى قصة مصر بكل ما عبر بها من أحداث منذ
عهد الفراعنة إلى ذلك الحين (١٨٩٤) رواية مفصلة جرى فيها على
روى واحد من الشعر في غير تكلف ولا افتعال ، إلى أن وصل إلى
ثلثائة بيت .
وقد لجج به هوى مصر ، أكثر ما لجج ، إذ هو في منفاه بالأندلس ،

حيث كان شعره يذوب حينئذ ويتحرق شوقاً إلى مصر وهناك قال
هذا البيت :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه

نازعتنى لإليه فى الخلد نفسى

* * *

وكان الاستعمار فى عصر شوقى لا يدخر جهداً فى الإيقاع بين المسلمين والأقباط ، حتى يحق له البقاء بخيله ورجله بدعوى حماية الأقليات ولقد نجح الإنجليز حيناً من الدهر فى هذه الواقعة ، فكان هناك إثارة لطائفة يثير حفيظة الطائفة الأخرى ، وكانت هناك مؤامرات يدبرها المستعمر لتحقيق غايته ، وإقامة دعواه فى البقاء باسم حماية الأقليات ، وهى أرنخص ما اخترع الإنجليز من التحفظات الأربعة المشهورة فى تصريح ٢٨ فبراير ، حتى قام سعد زغلول ، ففضى على حجتهم وأبطل دعواهم إلى الأبد .

وفى خلال هذه المؤامرات ، كان شوقى يتغنى بالمسيح بن مريم ، ويقرن ذكره دوماً بذكر محمد بن عبد الله ، فينزل قوله برداً وسلاماً على قلوب المصريين أجمعين .

ويشاء الإله الواحد ، إله المسلمين والأقباط ، أن يحيى عيد الهجرة مع عيد الميلاد فى وقت واحد ، فى أحد أحوام الفتنة ، فيهتف شوقى :

عيد المسيح وعيد أحمد أقبلا

يتباريان وضياء وجمالاً

ميلاد إحسان وهجرة سؤود

قد غيرا وجه البسيطة حالا

ثم يتحدث عن فتح الترك للقسطنطينية وتحويل « أيا صوفيا »
من كنيسة إلى مسجد ، مما قد تتبيل معه خواطر متعصبة ، فيقول شوقي
في دعوة جميلة إلى الساحة :

كنيسة صارت إلى مسجد

هدية السيد للسيد

ومرة أخرى . وبطرس غالى يومئذ عزيز الأقباط فى مصر ،
وقد أقيم له حفل تكريم لم يفت شوقي أن يبادر إلى الإسهام فيه .. يصيح
أمير الشعراء صيحة صدق فيقول :

يا بنى مصر لم أقل أمة القبر

ط ، فهذا تشبث بمحال

واحتيال على خيال مسن الحج

د ، ودعوى من العراض الطوال

إنما نحن مسلمين وقبطاً

أمة وحرّدت على الأجيال

سبق النيل بالأبوة فينا

فهو أصل ، وآدم الجدد تال

هكذا يهتف شوق بأن التفرقة ، حتى فى مجرد النداء ، تشبث بالمحال
ويرى أن النيل وشيخة العنصرين قبل محمد والمسيح ، وقبل آدم نفسه .

ثم ها هو ذا يتحدث عن ميلاد المسيح ودخول المسيحية إلى مصر
فيقول :

ولد الرفق يوم مولد عيسى
والمروات والمهدى والحياء
ازدهى الكون بالوليد ، وضاءت
بسناه من الثرى الأرجاء
وسرت آية المسيح كما يه
مرى من الفجر في الوجود ضياء
لا وعيد ، لا صولة ، لا انتقام
لا حسام ، لا غزوة ، لا دماء
إنما ينكر الديانات قوم
هم بما ينكرونه أشقياء

* * *

وهو على شدة اعتداده بإسلامه ، يرى مصر ديناً مع الدين ،
وأخشى أن أقول إنه يراها ديناً قبل الدين ، كما تشهد بذلك أبياته
التي قالها حينما ثارت الفتنة بين المسلمين والأقباط في مصر عقب مصرع
بطرس غالى ، والتي سقتها من قبل .

وقصيدته في النيل هي من خير مصرياته ، وهي تربو على مائة
وخمسين بيتاً ، تجرى في أروع النغم وترسم أجمل الصور ، ويستهلها
بقوله :

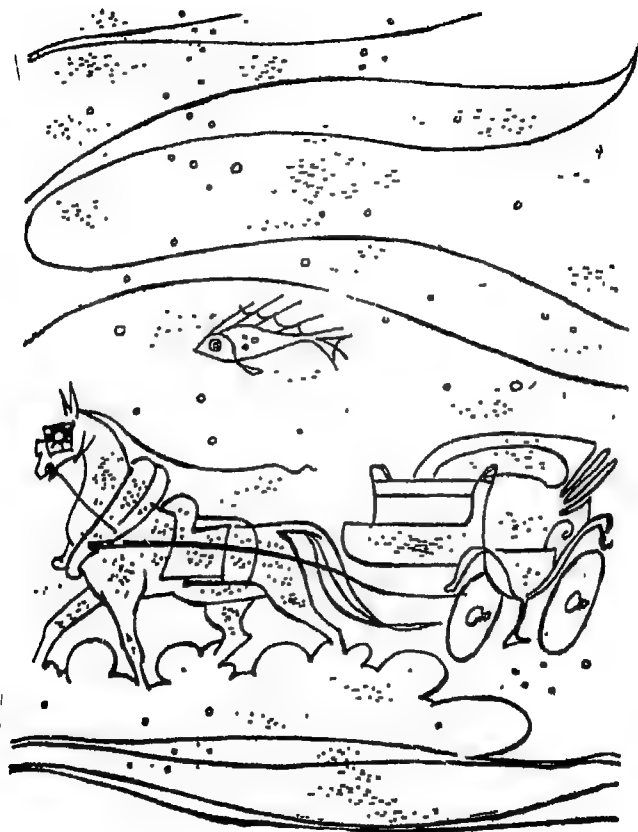
من أى عهد فى القرى تتدفق وبأى كف فى المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من عليا الجنان جدولا تترق
وفىها يقول عن النيل فى لفته روحية مشرقة يسوغ فيها تأليه الفراعنة
للنهر الواحد :

دين الأوائل فىك دين مروءة لم لا يؤله من يقوت ويرزق
لو أن مخلوقاً يؤله ، لم تكن لسواك مرتبة الألوهة تخلق
ومع أن هذه القصيدة هى أجمل مدحة للنيل فى تاريخ الأدب
العربى ، فإن من آيات العبقرية وجزالة الإلهام عند شوق ، أنه أنجزها
كلها فى ليلة واحدة كما أسلفت القول .

* * *

وكان مسلماً شديداً الاعتزاز بإسلامه ، ويصل به شعره الدينى
إلى مراتب المتصوفة ، كابن الفارض والبوصيرى ، من الناحية الروحية ،
وإن تجاوزهم فى الناحية الشعرية إلى درجة أعلى ونفس أجمل .
ومن أروع إسلامياته ، همزيتة النبوة التى يستهلها بقوله :
ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء
وقصيدة « إلى عرفات » ... ومعارضته الرائعة لنهج البردة ، التى
لها بقوله :

م على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي فى الأشهر الحرم
ربما يجب أن نثلثت إليه فى شعره الدينى ، أنه لم يفته — فى غمار تصوفه —
أن يتحدث إلى أبناء وطنه فى شؤون حياتهم وما يجب أن يشرق عليها



من روح الإسلام ، من تحلُّ بالفضائل - وزهد في عرض الحياة الزائلة
ودعوة إلى الخير والبر ، وتبشير بالعدالة الاجتماعية كجزء من رسالة
الإسلام . وبما يجعل لهذه اللفتة الرائعة قدرها ، أن شوق قد سبق لإيها
الزمن ، وبشر بها قبل ثورة ١٩٥٢ بأكثر من جيلين ، وجاهر بها
في عنفوان طاغوت الملكية والإقطاع .

يقول شوقي في الهزمية النبوية ، والخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام :
الإشراكيون أنت إمامهم لولا دعاوى القوم والغاواء
داويت مثلاً وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء الداء
إلى أن يقول :

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل في حق الحياة سواء
فلو أن إنساناً تخير ملة ما اختار إلا دينك الفقراء
ومع هذا ، يكن شوقي بالمسلم المتعصب الذي يعميه غلوه في
الدين عن تقديس المسيح عليه السلام ، والإشادة بدعوته إلى الحب
والسلام .

عروبوته :

وشوقي هو شاعر الشرق العربي ، بمجموعة دوله .
لقد أسهم شعره في الثورات العربية ، وفي دعوات الحرية بها ، وفي
تسجيل أحداثها وتكريم أبطالها ، وقد أحسن القول في نفسه حين قال
في الحفلة التي عقدت له جميع الشعوب العربية فيها البيعة لإمارة الشعر :

كان شعرى الغناء فى فرح الشرق ... وكان العزاء فى أحزانه
فهو يبكى مع أهل الشام فى نكبة دمشق ، فى قصيدته المشهورة :
سلام من صبا يردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق
وهو يتغنى بجمال لبنان فى قصيدته عن زحلة :
شيعت أحلامي بقلب باك ولملت من طرق الملاح شباكى
إلى أن يصل إلى ذروة الغنائية قائلاً :

يا جارة الوادى طربت وعادنى ما يشبه الأحلام من ذكراك
مئات فى الذكرى هواك وفى الكرى والذكريات صدى السنين الحاكى
ولقد مررت على الرياض بربرة غناء كنت حيالها ألقاك
ضحكت إلى وجوهها وعيونها ووجدت فى أنفاسها ريتاك
ويحيى شهيد ليبيا ، عمر المختار ، بقوله بعد استشهاده :
ركزوا رفاتك فى الرمال لواء يستنهض الوادى صباح مساء
يا ويحهم ، نصبوا مناراً من دم يوحى إلى جيل الغد البغضاء

عالمية :

ويتسع قلب شوقى للإنسانية جمعاء ، وتتلقت شاعريته إلى كل
ركن من أركان العالم ، فهو يخلد عبقریات شكسبير وتولستوى
وفيكتر هوجو وفيردى ونابليون وأرسطو وابن زيدون . وهو يذرف
للموع على ضحايا الانقلاب العثمانى ، وضحايا زلزال طوكيو ويوكوهما ،

وعلى ضحايا الحروب والمظالم والطبيعة وشهداء الحرية في كل مكان .

* * *

حب الحياة :

وكان شوقى يحب الدنيا ، ويأخذ نصيبه منها ، تشهد بذلك
خمرياته ، ووصفه للجنة هذا الوصف الرائع :

حَف	كأسها	الحبيب	فهى	فضة	ذهب
أو	دوائر	دور	مائج	بها	لب (١)
أو	فم	الحبيب	جلا	عن	جمانه الشنب (٢)
أو	يداه	،	باطنها	عاطل	وتختضب
أو	شقيق	وجنته (٣)	حين	لى	به لعب
راحة	النفوس	،	وهل	راحة	عندها تعب
يا	نديم	خف	بها	لا	كبابك الطرب
لا	تقل	عواقبها	فالعواقب	الأدب	

ثم في قوله في قصيدة (رمضان ولى) ... وقد ترجمت جريدة

(١) اللب : موضع القلادة في الصدر (٢) الشنب : حلالة الأسنان

(٣) الشقيق : واحدة شقائق النعمان ، زهور حمراء .

(الطان) بعض أبيات هذه القصيدة واحتفت بها على صفحاتها :
 رمضان ولي ، هاتها يا ساقى مشتاقة تسعى إلى مشتاق
 ما كان أكثره على ألاّ فيها وأقله في طاعة الخلاق

إلى أن يقول :

هات اسقنيها غير ذات عواقب حتى ترأع لصبيحة الصفاق
 صرفاً مسلطة الشعاع كأنما من وجنتيك تدار والأحداق
 حمراء أو صفراء ، إن كريمها كالغيد ، كل مليحة بمذاق

* * *

مسرحياته :

لم يعرف العرب في تاريخهم فن التمثيل كما عرفه المصريون القدامى في
 معابدهم ، ولا كما عرفه اليونان والرومان بعد ذلك في مسارحهم .
 فالتمثيل في بلادنا العربية فن مستحدث ، نستطيع أن نحدد بدايته
 حين بدأ مارون النقاش محاولاته الأولى في التأليف والتمثيل المسرحي
 في بيروت ، ثم انتقلت هذه المحاولات وصاحبها ومن نسجوا على منواله
 إلى مصر ، وبدأ عهد من التأليف المسرحي الهزيل ، ثم تبعها حركة
 لترجمة روائع المسرح الأوربي إلى اللغة العربية ثراً ، ثم نظماً صالحاً
 للغناء مما تطلبت حاجات المسرح الغنائى الذى نشأ في مصر في الربع
 الأول من هذا القرن .

ثم كانت المسرحية الزجلية التي قاد زمامها عثمان جلال ، واعتمد فيها على الاقتباس ، كما صنع في مسرحيته « الشيخ متلوف » المقتبسة من مسرحية « تارتوف » لموليير .

ولم يعرف المسرح العربى المسرحية الشعرية متكاملة المقومات إلا حينما نزل شوقي إلى ميدانها سنة ١٩٢٧ ، وكان إلامه الواسع بالأدب الفرنسى ولياليه الطويلة في مسارح باريس وهو يطلب العلم هناك أيام شبابه ، ولأسيا مسرح الكوميدي فرانسيز ، وما شاهد على خشبته من روائع كورنبي ورابين وموليير ... كان كل هذا عدته في الإقدام على هذه الخطوة الرائدة في تاريخ المسرح العربى ، وفي تاريخ الأدب العربى جملة ، فكتب مسرحياته « مصرع كليوباترا » و « على بك الكبير » و « قممير » و « مجنون ليلى » و « عنزة » و « أميرة الأندلس » و « ملهارة » الست الهدى التي تميزت بلون جديد ، هو المحلية ، والروح المصرية المرحية ، واللغة المصرية الفصحى ، أى اللغة السهلة التي لا تخرج عن حدود القاموس العربى ، مع تطعيم يسير ببعض الألفاظ والتعبيرات القاهرية بحيث يستسيغ القصة كلها ويستوعبها كل قارئ أو مشاهد ، سواء أكان من الخاصة أو العامة .

ولذا كانت حرفية المسرح في هذه الروايات تعرضها لناحية من النقد في بعض المواقف ، فإن روعة الشعر وانسياب الموسيقى وضخامة الموضوع ، تظنى على أكثر هذا النقد، وتضع هذه الأعمال في مكان حنى من تاريخ الأدب العربى .

وقد تغنى شوقي ، من خلال الحوار الشعري في هذه المسرحيات ،
بالحب العفيف في « مجنون ليلى » ، وبالعاطفة والبطولة في « عنتره »
وببحرية مصر وكفاحها ضد الاستعمار في « مصرع كليوباترا »
« وعلى بك الكبير » و « قمبيز » وبأعجابه العرب في « أميرة الأندلس »
وبنقد المجتمع في « الست هدى » .

* * *

وقبل أن ننتهي من هذه الكلمة عن شوقي ، ينبغي لنا أن نقول
إن عصر النهضة في تاريخ الشعر العربي في العصر الحديث ، الذي بدأ
بمحمود سامي البارودي ثم إسماعيل صبري ، كان في يد القدر بعد
هذين العلمين ، لولا أن أتاحت العناية لهذه النهضة عبقرية شوقي العملاقة
التي جددت قوى الشعر ، واستحدثت مدرسة لانزال مزدهرة كل
الازدهار ، ولا يزال مريدوها وتلاميذها والمتأثرون بها هم شعاعات هذه
النهضة حتى اليوم .



شاعر الکرنک

أحمد فتحي

لم يعرف عامة الناس هذا الشاعر ، أحمد فتحى ، قبل أن يغنى له عبد الوهاب أنشودة الكرنك ... كما لم يعرفوا صاحبه على محمود طه قبل أن يغنى له عبد الوهاب ما غنى له من أغاريد عذبة ، منها « الجندول » و « كليوباترا » و « ليالى كليوباترا » .

وإذا كان الغناء يمنح الشعر كل هذا القدر من الذكر وبعد الصيت فإن الشعر يرد الجميل مضاعفاً ، ويمنح الغناء قدراً أكبر من الخلود ، بدليل أن هذه الأغنيات الشعرية التى ألفها أحمد فتحى وعلى محمود طه ، لا تزال تجرى على ألسنة الناس بعد أن مر عليها عقدان أو أكثر من عقدين من الزمان ، على حين أن عشرات ومئات من الأغنيات الدارجة التى يغنيها أعلام الغناء تموت على ألسنة الناس قبل أن ينصرم من عمرها نصف العقد أو ما دونه . وهذا وجه من وجوه شرف الفصحى على الدارجة .

* * *

منذ مائة سنة أو أكثر قليلاً ، شدت أسرة من بطون الجزيرة العربية ، اسمها أسرة فايد ، رحالها للهجرة إلى مصر بغاية الإقامة فيها لأمر لا نعلمه .

رحلت الأسرة ومعها خيامها إلى أن حطت بها فى رمال الصحراء بمحافظة الشرقية ، عند موضع يقال له « كفر الحمام » حيث نصبت

خيامها المصنوعة من الشعر - شأن البدو - وانتشرت في تلك البقعة من الأرض ، ومازالت بها تعالجها بالفأس والماء حتى جعلت منها قرية زراعية خصيبة ذات بيوت من الطين كسائر بيوت ريف مصر .
من هذا البيت ، وفي هذه القرية النائمة على حافة الصحراء ، نشأ الشيخ إبراهيم سليمان ، أبو شاعرنا أحمد فتحى إبراهيم سليمان .
وكان الشيخ من علماء الأزهر ...

وكان ينظم الشعر ، وقد شارك بمنظومه الملتب في ثورة سنة ١٩١٩ ، واشهر عنه أنه كان ينظم المظاهرات الوطنية في الإسكندرية مستعيناً بزملائه وتلاميذه ، إذ هو شيخ للمعهد الدينى هناك ، وقد زج به في السجن وتعرض بيته لغارات الشرطة أكثر من مرة .

وقد تزوج الشيخ أكثر من مرة ، ومن إحدى هذه الزيجات خرج شاعرنا إلى النور في اليوم الثانى من أغسطس سنة ١٩١٣ .

ولهذا كان الشاعر كلما ألت به ملعة ، وذكر هذا التاريخ في تشاؤم قال : ألسنت من مواليد سنة ١٣ .. ٩
تطيراً بالرقم الذى يقال إنه مشنوم .

• • •

قفى الشاعر طفولته موزع القلب بين الإسكندرية ومسقط رأسه
ية كفر الحمام .

ولما شب عن الطوق ، التحق بالمدرسة الابتدائية في الإسكندرية ،
ثم تجاوزها إلى المدرسة الثانوية .

ومات أمه وتركته طفلاً لم يجاوز العاشرة بكثير ... ثم مات أبوه
وهو ابن خمسة عشر عاماً ، فتعرّض في دراسته ، وبدأ يلتقى بالشیطانیین :
شیطان الشعر وشیطان الحیاة .

* * *

لم يرث الشاعر عن أبيه شيئاً من الإرث إلا وسامته وعينيه الزرقاوين
وسجية الشعر ..

ومنذ تلك السن المبكرة — الخامسة عشرة — عقد الشاعر مع الشیطان
صداقة عجيبة ، لعبت أكبر دور في حياته — كما فعلت بالدكتور
فاوست — حتى هدمته وحطمته .

منذ تلك السن المبكرة بدأ يمارس لذاته الحسية ، ويصاحب الكأس ،
فلم يستطع أن يظفر بشهادة « الكفاءة » على تواضعها .

وكفله خاله بعد موت والديه ، فحاول تقويمه ، على غير طائل ،
فألحقه بمدرسة الفنون التطبيقية — وهي يومئذ مدرسة صناعية متوسطة —
قلب بها حتى تخرج فيها سنة ١٩٣٠ ، وعين موظفاً بجمرك الإسكندرية .

* * *

وتستقل الوظيفة بشاعرنا من جمرك الإسكندرية إلى التعليم الفني ،
فيشتغل مدرساً بمدرسة الصناعات بالسويس . وفي هذه الفترة يبدأ اتصاله
بالحياة الأدبية ، يرسل مجلة « أبولو » ... التي كانت تصدر عن جماعة
« أبولو » للشعر في تلك الآونة .

ويردد كثيراً على القاهرة ، ويتعرف إلى شعرائها وأدبائها وعافلها

الثقافية ، ونحوض معاركها الفكرية ، فترى له في مجلة «أبولو» مقالا عنوانه « في معنى الانتحال » يهاجم فيه العقاد وأصحابه ، ويلقى بشواهد على نظر العقاد في شعر سابقه وسطوه على معانيهم ...

* * *

وتكتب لقمة العيش على أحمد فتحي أن يذهب إلى الأقصر ، مدرسا بالمدرسة الصناعية ، فلا يستطيع أن يفرق هومه في النيل أو يؤقلم روحه ويروضها على التصوف في معابد الأقصر الخالدة ، فقد غلبته للذات الحس في ذلك الجذب ، فملاؤه حيناً إلى القاهرة وكل ما في القاهرة من متاع .

ومن يدرى ... لعله لو لم يذهب إلى الأقصر ولولم يستوح هذه الأحجار الجاثمة والأطلال القائمة ، ما عرف الناس شيئا من أمره ، ولا سمعوا بيئا من شعره .

على أن كل أجره عن هذه القصيدة لم يزد على ثلاثة جنيهات تقاضاها من الإذاعة في ذلك العهد .

وبعد نجاح أنشودة الكرنك ، وما أضفت عليه من ذبوع صيت ، نظم أنشودة أخرى بعث بها إلى عبد الوهاب ، مستشفعا بكثير من كبراء العهد ، ومنهم الدكتور طه حسين ، والمرحوم محمد سعيد لطفى . بيد أن عبد الوهاب أتعبه وأضناه .

فلما أوشك أن ييأس منه ، اتجه إلى أم كلثوم وتوجه إليها بأنشودة عنوانها « نداء الغروب » وهي من وحي وادي الملوك ... :

ولكنها غضبت الطرف هي الأخرى يومئذ ، فلم يجد مناصاً من أن يشيع أغانيه على ألسنة الصف الثاني من أهل الغناء ، فنظم عشرات الأغاني بالفصحى والدارجة ، ولكن أغنية منها لم تشتهر ولم تصب من الخطوة عند الناس بعض ما أصابت أنشودة الكرنك .

• • •

وعادت لقمة العيش تحمله من الأقصر إلى الفيوم ، وتقربه إلى إلى حبيته : القاهرة .

ومنذ طفولتنا ونحن نسمع ذلك الموال الشعبي العذب ونشجى له : سبع سواقي بتنعى لم طفوا إلى نار ...
وكنت أحسبها أسطورة لا وجود لها ، هذه السواقي السبع التي تنعى ، إلى أن رأيتها في ربوع الفيوم حقيقة واقعة رائعة .

ورأيت حولها عيون « السليين » و « عيون » الفديمين » و « الحداثي المعلقة » و « بحيرة قارون » وغير ذلك من آيات الطبيعة الساحرة ، وكأن هذه البقعة من أرض مصر قد اغتصبت من بقية مصر نصيب الأسد من السحر والشاعرية .

وقد عاش راحي قنرات من شبابه في هذا الفردوس ، وكانت له فيه قصة حب سجل مراحلها في أكثر من قصيدة من شعره العذب ، أخص بالذكر منها قصيدة « ريفية الفيوم » التي مطلعها :

نشأت في منابت اللتين والزيتون في ظل هادلات الكروم
وسقاها من بحر يوسف عذب سلسيل من مسكه المختوم

سمعنا هذه القصيدة العذبة من رامي في مطالع شبابنا ، في أول الثلاثينات ، وكان أحمد فتحى يؤم بعض محاسننا في عهد جماعة «أبولو» ويسمع هذه القصيدة ويفتن بها .

وهكذا علقته بخياله صور حاوة للفيوم كما رسمها رامي . منابت التين .. وهادلات الكروم . وبحر يوسف ... وسواقى المدير .

فلما كانت نقلته إلى الفيوم سنة ١٩٤١ - مدرسا بالمدرسة الصناعية - تفاعل خيرا وكتب إلى صاحبه أنور أحمد يقول له :

« السواقى تكاد تطفى على نداءات خواطرى وأنا أكتب لك ، ومع هذا فإنه لنواح حبيب ياليتنى أستطيع أن أسجله فى أبيات كما سجله رامي فى قصائده » .

بيد أن الحرب كانت قائمة يومئذ ، وقد نجحت الدعاية البريطانية فى اجتلاب الشاعر إلى جانبها بما أغدقت عليه - عن طريق أغانيه وأحاديثه فى الإذاعة البريطانية - من دخل أعانه على يسر الحياة وأسباب المتعة ، فانغمس فيها ، ووجه شعره إلى التلذذ بالخور ونصرة الحلفاء ... ومن ذلك قوله :

جن بعض الشعوب واختلط الأمر	... عليهم فى فتنه وأغترار
نقضوا الميثاق الذى أبرموه	أمس بين الخصوم والأنصار
ومشوا فى البقاع تها وعجبا	واستباحوا فى الأرض كل دمار
فى اعتماد - بقوة زعموها	الحديد قد أعتدوه ونار
كفروا بالسلام والحق والخير	... فويل للمعشر الكفار

هكذا قال الشاعر.. وكأنا الحلفاء لم يكونوا هم الآخرين كفاراً
بالسلام والحق والخير .

وهكذا اتخذ أحمد فتحي موقفاً من معركة الحلفاء والمحور . وسواء
أكان موقفه هذا عن إيمان أو عن غير إيمان ، فقد زج به بسوء حظه ،
في تيار لم يستطع أن يرجع عنه فيما بعد ، إلى أن قذف به ، بعد مرحلة
الفيوم ، إلى ميدان الحرب في الصحراء الغربية ، بعيداً عن وطنه ،
ضابطاً في قوات الحلفاء ، يلبس كسوة ضباطهم وهو يشعر بالحجل منها .

* * *

ماذا حدا بشاعرنا إلى هذه النقلة السوداء ؟
إنه يفسر لنا نازعة النفس التي قذفت به إلى الصحراء في إحدى
رسائله الشجية ، فيقول :

« أنت تدري أنني رجل لا سبيل للمال إلى استمالتة . ولكن
حدث أنني سعت إلى الشهرة سعى الحميد ، وطلبت الحميد طلب الملحاح ،
وبدلت في سبيل ذلك ما بدلت من نضرة شبابي ونور عيني .
« فلما بدأ نجمي يتألق في سماء المجتمع ، وأقبلت على الشهرة
إقبال المشوق ، كان ما تبقى في النفس ذماء لا يكاد ينتفع بالحياة في
جمالها ولا في تفصيلها .

« فقدت نصف قلبي منذ ثلاثة أعوام ، وفقدت نصفه الباقي منذ
أيام و :

صار جدّاً مالهوت به ربّ جدّ جرّه لعب

« ولقد فزعت إلى الشراب من مواجهي وعذاب ذنباي ، ، فما زادني إلا ضعفاً عن احتمال الحياة ومواجهة متاعبها ، وعادت علة الجسد تزيدني من يقظة جراح قلبي ، وأصبحت حياتي كلها مقاساة ونكدًا .

« وتلفت حولي ، فإذا أنا ... ولا ناصر ولا معين . . وإذا مثلي كمثل الكسرة من الخبز العفن ، ملقاة في عرض الطريق ، إن وجدت نقيًا يرفعها إلى جانب الحائط ، فلأنها لن تجد من يأكلها بأية حال .

« قلت لنفسى : لعلنا نصطنع لنا وطنًا جديدًا وعملاً جديدًا وآفاقاً جديدة ، يرتع في ظلالها الإحساس بالحريخ والخيال مهيبض الجناح ، ولعل تغير الجو المحيط وتبديل الوسط وتجديد المعالم ... لعل ذلك كله أن يعين على صفحة الماضي بخيره وشره ، بل بشره وحسب ، فما كان فيه من خير قط .

« وفي بضعة أيام أبرمت الأمر ، وعقدت العزم على الرحيل ، لم أشاور أحداً ولم أستأنس برأى أحد ، بل استخرت الله في المضي ، وحضرت رحلي أطيايف الشباب من أمانى شاحبة غامت في عبرات الأسف على ما ضاع من صحوة العمر ونضرة الشباب ، ورحلت وأنا لا أدري إلى أين ؟ .

« ولست أدري حتى الساعة ماذا يراد بي ، فإن كان خيراً فقد أسلفت من الصبر والتجمل ما يثبت حتى في أن أنعم بما بقى لي في صحبة الحياة من أحد ، وإن كان شراً ، فقد :

تعودت مس الضر حتى ألفتها وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر

* * *

« ولكن شر ما أكابد الآن - في برقة - هو هجر شيطاني الصادح الذي طالما هشتت إلى هزجاته بين تهجم أبي في أمسياتها العابسة ، فما عدت أهتف ببيت من الشعر ، ولا عاد يطر في طيف من أطيايف الخيال . »

* * *

والواقع أن شيطان أحمد فتحى لم يحسن صحبته بعد تلك الفترة ، فقد عاد شاعرنا من الصحراء الغربية بعد حين ، بعد أن خلع حلة الجيش البريطاني ، ولجأ إلى صاحبه المرحوم محمد سعيد لطفي - مدير الإذاعة يومئذ - وقد كان على صلات طيبة بالإنجليز ، فتوسط للشاعر عندهم ، فعيّنه مديعاً ومترجماً للأخبار بالإذاعة البريطانية بلندن ، في فترة مظلمة ظالمة . تكاثرت فيها القنابل الطائرة على العاصمة البريطانية . وذهب أحمد فتحى إلى لندن ، ولكنه لم يحسن صحبة من حوله ، ولم يتخل عن بوهيميته التي لا تقيده بموعد ، وتجعل موعد الحب قبل موعد العمل .

وهكذا ضاقوا به ... فلم يجد بداً من الاستقالة في يونية سنة ١٩٤٦ ، أى بعد أن وضعت الحرب أوزارها بعام .

وحاول أن يبتقى في لندن ، كمراسل لبعض الصحف المصرية ، ولكن مراسلة الصحف لم تقم بأوده ، فحاول أن يمارس التجارة . ولكن متى كانت تجارة الشاعر رابحة ؟

على أن لندن قد حملته ذكرى ظل يدمع لها بقية حياته .
فقد أحب هناك ...

أحب شابة إنجليزية اسمها « كارول » ... وهى من بنات الطبقة
المتوسطة . وكانت تشتغل كاتبة على الآلة الكاتبة ، وتزوجها .
ورزق منها طفلة أسماها جوزيفين .

وكان قد تعود أن يفرط فى الشراب ، فلا يفيق منه ، وهكذا لم
يستطع أن ينهض بتكاليف الحياة الزوجية . وجاءه النذير حيناً رفضت
السلطات الإنجليزية أن تجدد إقامته هناك ، فكان عليه أن يرحل ،
ويترك زوجته وابنته خلف ظهره ، ويبحث عن أى مصر .

وقد أتيح له فى أثناء عمله فى الإذاعة البريطانية أن يتعرف على
كثير من الشخصيات العربية التى كانت تردد على لندن ، ومن
بينها الأمير عبد الله الفيصل ، وهو يومئذ شاب فى مثل سن شاعرنا ،
وهو كذلك شاعر ، وله ديوان اسمه « محروم » .

ولعل صاحبنا شكاً للأمير الشاب حاله ، ولعل الأمير لمس ما فى
شاعرنا من مواهب قادرة ، فوعده بتهيئة عمل له فى الإذاعة السعودية .
وصدق الأمير وعده ، وعاد شاعرنا إلى القاهرة ، وتأهب للسفر
إلى السعودية .

وهناك ... أقام حيناً متردداً بين عمله الإذاعى والاشتغال بالمقالات
ولكن الأرض المقدسة ضاقت به ضيق الأرض غير المقدسة .. أرض
الإنجليز ... فلم يلبث أن عاد إلى مصر ... ليعيش على عمل صحفى

طوراً ، وعلى صلة يصله بها صاحبه الأمير تارة ، إلى أن ودع الحياة
وهو في غيبوبة ثمالة ، وحيداً في غرفته بالفندق ، في اليوم الرابع من يوليو
سنة ١٩٦٠ .

* * *

مات أحمد فتحي دون أن ينال أى نصيب من الدنيا وعلى شفثيه
وهم خلود يهمس للناس :

إذا أفدت بأشعارى وروعها سوى علالة تخليد لآثارى
وما الخلود بمأثور لعاريسة غير الحسيسين من ترب وأحجار



المستقبلي الجديد

إلياس فرحات

هناك قرية تنجب العباقرة . . .
 اسم هذه القرية « كمرشيا » بلبنان . . .
 ومن هذه القرية ، خرج آل اليازجي ، خير من خدموا اللغة
 العربية . . . وآل شمائل . . . من خيرة من رعو الثقافة . . . وآل تقلا . .
 من أقدم من أنشأوا الصحافة .
 ومن قرية العباقرة خرج المتنبي الجديد إلياس فرحات .

* * *

وحياة-إلياس قصة من أجمل قصص الكفاح . . . فقد نشأ
 الصغير في كفرشيا ، ودخل المدرسة ليتعلم ، فلم يقدّم بها إلا بضعة
 أيام خرج بعدها إلى الكفاح من أجل الرزق ، يحترف التجارة ، أويقشش
 الكراسي ، أو يربي الدجاج والحملان .
 وفي فترات فراغه . . . يقول الشعر العامي .
 ومن الشعر العامي تدرج إلى الشعر العربي ، بدون أن يعرف ما هو
 النحو ولا ما هو الصرف ، ولا ما هو الوزن ولا القافية .
 وبهذه البضاعة المفلسة من العلم ، نزع إلياس من لبنان إلى
 البرازيل .
 ولم يطلب العلم بعد ذلك في مدرسة ، وإنما طلبه في الجامعة الكبرى . .
 جامعة الحياة :

لسن كنت لم أدخل المدرسات صغيراً ، ولا بعد هذا الكبر
فلذا الكون جامعة الحمامات وذا الدهر أستاذها المعبر

* * *

وكان في جعبته يوم هجرته شيء يعتز به ، كأنه قطعة من قلبه : خصلة
شعر من فتاة من بنات كفر شيا ، أحبا ، ولكنها زفت إلى غيره
بسلطان الأهل والمال ، قال فيها :

خصلة الشعر التي أهديتها عندما البين دعاني بالنفير
لم أزل أتلو سطور الحب فيها وسأتلوها إلى اليوم الأخير

* * *

خنت عهد الحب... لأبأس ، فإني مكث بالأثر الغالي الثمين
فإذا ما عدت أحيا بالتمنى بعد أن منيتني عشر سنين
أحمد الله... فما الاخلاف مني لأنني كنت لك الصب الأمين
راجعى سيرة حبي .. راجعها فهي نور ساطع للمستنير
وإذا مرت بك الريح سلبها إنها تعرف من أمرى الكثير

* * *

والباس شاعر غزل ، وشاعر كأس ، فهو خياى كبير .
ولا أستطيع أن أترك الحديث عن غزله قبل أن أعرض هذه الأبيات
التي تسيل رقة وعدوبة ، وعنوانها « تعال » :

حبيبي ... تعال تجد منزلك معداً كما كان من قبل لك
تعال ... فما احتل قلبي سواك وغيرك في خاطرى ما سلك

تعال فهذا بساط الريح يوشى بأزهاره غمملك
تعال أنظر النيرات اللواتى تغرين لما لبسن الحملك
فلولاك لم تبد هذى النجوم وأولاك ما دار هذا الفلك
حبيبي تعال ادن منى فكم حسدت النسيم الذى قبلك
تعال ارفع اليأس عن مدنف إذا لم تبادر إليه هلك
تعال أشهد النزع ، نزع الذى سوى دمة الوجد لن يسألك
تعال ابك صبا يحول ولولا وداع الحياة لما استعجلك
أموت على رشفة من مائك فيا أكرم الناس ما أبجلك

* * *

الفكرة الشائعة أن هؤلاء المهاجرين من ربوع العروبة إلى أمريكا ،
قد راحوا فوجدوا الذهب مثوراً على الأرض ، وما عليهم إلا أن يلموه .
وهذا حديث خرافة . وحياة إلياس فرحات هى مثل حزين من
أمثلة الكفاح من أجل الرغيف فى المهجر .

فقد بدأ إلياس حياته هناك يربى الخنازير ، فتدهورت أسعارها ،
فتعلم تضيق حروف المطبعة ، ولكنه ما لبث أن اختلف مع صاحب المطبعة .
فراح يصنع يديه الأطعمة الشرقية ويتجر فيها ، فلم يصادف
رواجاً .

وأخيراً . . . حمل الكشة (وهى صندوق من الزنك) على ظهره
وطاف بالقرى والكفور يبيع مساطر التجار (أى عيناتهم) لحسابهم .
وعشرون عاماً عبرت به وهو فى هذا الكفاح المرير ، يصفها فى

قصيدة لعلها أجمل قصائد حياته ، اسمها « حياة مشقات » .

* * *

لازم النحس إلياس منذ ميلاده حتى بلغ الثلاثين .. ويروى صاحبه توفيق ضمون ، الذى استضافه فى بيته حقبة من الزمن ، هذه الحكاية :

« لقد أصبح فى منزلى الحفير غرفة معروفة باسم غرفة فرحات ، وأصبح أصدقائى أصدقاءه ، ولكننا كنا جميعاً فقراء .

« وفى سنة ١٩١٨ ، حلت به النكبة الكبرى باحترق طرف ثوبه ، فتشاورت مع شريكى جورج حسون فى أمره ، وقررنا أن لانخرج له من مأزقه إلا بالعمل . ولكنه لم يكن يصلح لأى عمل تجارى ، فاخترنا له عملاً أدبيّاً ، فيكون ممثلاً لمجئتنا « الدليل » ومراسلها فى الداخلية ، يجمع الاشتراكات من أطراف الولايات .

« ولكن كيف يقوم بهذه المهمة السامية دون رداء لائق يلبسه ؟

« لذلك كان أول ما فعلناه أننا حصلنا على بدلة بألف وخمسمائة قرش ، يرتلبها معجلاً ، وندفع نحن ثمنها مؤجلاً على عشرة أقساط شهرية .

« وسافر فرحات على بركة الله مزوداً بالتفويض القانونى وبالوائف والإيصالات ، وبتنا نتوقع أخباره السارة :

« ولكن كانت أولى رسائله أبياتاً من الشعر ينعى فيها إلينا كم رداءه الجليدة الذى أحرقته شرارة من مبدخنة القطار قبل المحطة الأولى :

كأن الهواء مع النار لما رآني لبست الحديد انفق
فجاء بها من دخان القطار ونثرها فوقه فاحترق
فقلت أعاتب ربي مشيراً إلى الخرق وهو كباب النفق
إلهي ، تضرع على بثوب وتكسو الغصون ثياب الورق
ولو كنت غصناً لجددته متى ما يشير الريح انطلق
ولكن أرى دون تجديدده شقاء الأسى وسيول العرق

* * *

في هذه الظروف القاسية ، ووسط كل هذا الشقاء والجوع والعري
والحرمان ، لم ينس فرحات وطنه ، ولم ينس عروبتة .
فهو لا يزال يتغنى بلبنان ، مسقط رأسه .
ولكنه في هذا التغنى لا ينسى لحظة واحدة أن لبنان ليس إلا جزءاً من
وطنه الكبير ، الشام ، والشام عنده سوريا ولبنان معاً .
ثم لا ينسى أيضاً أن الشام ليست إلا جزءاً من وطنه الواحد الأكبر ،
الأمة العربية .

إنا وإن تكن الشام ديارنا فقلوبنا للعرب بالإجمال
تهوى العراق ورافديه وما على أرض الجزيرة من حصي ورمال
وإذا ذكرت لنا الكنانة خلقتنا نروى بسائق نيلها السلسال
كنا وما زلنا نشاطر أهلها مر الأسى وحلاوة الآمال
ولا يغني إلياس للقومية العربية ثم يسكت . . . بل يمضي في غنائه ،
وهو الشاعر المسيحي اللبناني ، فيمعن في الإشادة بمحمد وبالإسلام ،

وبكل يد شاركت في بناء هذه القومية .

يقول في مولد محمد :

عمر الأرض بأنوار النبوة كوكب لم تدرك الشمس علوه
بينما الكون ظلام دامس فتحت في مكة للنور كسوه
من رأى الأعراب في وثبتهم عرف البحر ولم يحجل طموه

* * *

ولم يقف فرحات بشعره عند هذا الميدان وحده ، بل شارك في معركة فلسطين ، فكان له فيها أكثر من قصيدة ، منها قصيدته الرائعة التي نال بها جائزة المجمع العلمي المصري ، سنة ١٩٤٧ ، وقدرها سبعون جنيهاً .

وبرغم أنه كان في حاجة إلى كل درهم منها ، فقد أبى أن يتسلمها ، وحوفاً كاملة إلى صندوق إغاثة فلسطين .

وعندما فقد العرب فلسطينهم ، قامت في أمريكا مؤسسة يسمونها النقطة الرابعة ، مهمتها تزويد الأمة العربية بنوع من المخدر اسمه الدولار ، لعله ينسى أبناءها ما فقدوه في فلسطين من أرض ومن شهداء . ويومئذ قال فرحات في قصيدة عنوانها « حكمة الأفعى » :

قالت الأفعى لأمریکا اسمعى إن تقليدك لي عين الشطط
أين مني أنت يا من سمها بغية التويه بالشهد اختلط
بيننا الفرق كبير فاعلمسى لا يحل الزيف ما الحق ربط
أنا لا أنكر أنى حية رضى العالم عني أم سخط

أنا لا يهتف بالسلم في ويدي ترسم للحرب الخطط
أنا لا أنصر لصا ، إن من ينصر اللص من اللص أحط
أنا لأحمي جناة خائفة قدف الموج بهم من كل شط
أنا لأستعبد المحتاج في نقطة فيها من السم نقط
خدعة سميتها رابعة كل أرقامك من هذا النمط
أنت فيك السم لاحصر له وأنا السم بنائي فقط

* * *

تلكم هي قصة المتنبي الحديد في عجالة :

وقد عاد إلياس من مهجره إلى أرض العروبة في سنة ١٩٥٩ في عهد الوحدة ، وحينما نزل من الطائرة ، تلفت حوله ، ودمعت عيناه ، وقال : « ما فارقت هذه البلاد قط ، فقد حملتها معي إلى المهجر » . ولكنه لم يلبث أن عاد إلى مهجره من جديد ، بعد أن لم يجد سبيلا للعيش في وطنه الأم .



الأخطار الصغيرة

بشارة الخوري

بعد « الأخطل الصغير » مات الهوى . . . وتحطمت الكأس .
 في الليلة الأخيرة من شهر يوليو سنة ١٩٦٨ ، ودّع الدنيا أمير
 شعراء الحب والكأس في هذا العصر ، وسيد شعراء لبنان في كل المصور ،
 بشاره الخورى ، الذى اشتهر باسم الأخطل الصغير ، وصاحب
 الحمرة التى نسخت كل خمريات أنى نواس ، وأصبحت عطراً فى
 مشارب العشاق ، ونقلا فى مجالس الشاربين ، التى يقول فى مطالعها :

فمن الجمال	وثورة الأقداح	صبغت أساطير الهوى بجرأى
ولد الهوى والخمر ليلة مولدى	وسيحملان معى على ألواحى	
يا ذابح العنقود خضب كفه	بدمائه ، بوركت من سفاح	
أنا لست أرضى للنداءى أن أرى	كسل الهوى وتناوب الأقداح	
أدب الشراب إذا المدامة عربدت	فى كأسها ، ألا تكون الصاحى	

» . . .

اسمه الكامل : بشاره عبد الله الخورى . وقد ولد فى سنة ١٨٨٥ .
 بحى الرميّة القائم على ضفاف البحر المتوسط فى بيروت ، من أسرة
 لبنانية خالصة ، نشأت فى قرية « مشمش » بمنطقة جبيل . وكان أبوه ،
 عبد الله الخورى ، يشتغل بالحكمة ، وهى كلمة كانت تطلق فى
 أيامه على مهنة التطبيب ، وكان الطب يومئذ بالممارسة لا بالدراسة
 والشهادة .

بيد أن عبد الله الخورى ، برغم أنه كان غير مأذون — أى غير مؤهل — كان ذائع الصيت فى مهنته ، يشخص الداء ويحضر الدواء بمهارة كانت حديث الناس فى عصره ، وقد اقتضى من كسب مهنته ثروة واسعة . وقد رزقه الله بأربعة من البنين ، هم نخلة ويوسف وجورج وبشارة . أما نخلة ، فقد سار فى ركب المغتربين إلى أمريكا الجنوبية ، فلم يعد حتى مات هناك منذ عدة سنوات ، وكانت الشيخوخة قد جدت بشقيقه — شاعرنا الأخطل — الذى لم يعلم بوفاته إلى أن لحق به فى الدار الباقية ، وأما الآخران ، يوسف وجورج : فقد تعلموا على يد أبيهما صناعة الصيدلة ، وبرزا فيها ، وكسبا منها ثروة طيبة . وأما شاعرنا ، بشارة ، فقد أدركته حرفة الأدب منذ صباه ، فالتحق بمدرسة الحكمة ببيروت — ولا صلة لاسم هذه المدرسة بمهنة الحكمة التى مارسها أبوه .

وتفتحت شاعريته منذ نعومة أظفاره على أيدي أعلام الأدب والشعر الذين تتلمذ عليهم فى هذه المدرسة ، وفى طليعتهم الشاعر الكبير شبلى ملاط ، والعلامة الشيخ عبد الله البستاني . هكذا أدركته حرفة الأدب دون إخوته .

على أنه قد أثر أن يعيش محروماً كما عاش سواه من الشعراء ، ذلك أنه ورث أكثر من مرة . ورث أباه ، ثم أخويه يوسف وجورج ، وكان الميراث فى كل مرة ثروة طيبة ، أكثرها من البساتين النضرة الحزبية فى محلة « البوشرية » ولكنه لم يحرص على الثراء ، فباع هذه

التركت تباعاً ، وأنفقها ذات اليمين وذات الشمال ، إذ كان مسرفاً كريماً مضيافاً محباً للحياة ، لا يرد سائلاً ، ولا يجمع عن لذة ، ولو أنه حرص على ميراثه من الأرض ، وادخره إلى هذا الوقت الذي ارتفعت فيه أسعار البساتين ، لكان من أصحاب الملايين ، على أنه لم يأسف يوماً على ما أضاع ، فقد كان يعد إنفاقه عن سعة ، سماداً لشاعريته . والشاعرية وحدها - فيما يرى الشاعر الخالص - هي أرفع ألوان الثراء .

ومارس الأخطل في شبابه مهنة تدريس الأدب العربي في مدرسة « الثلاثة الأقمار » ، ثم في مدرسة الفرير ببيروت ، وقد نبغ من تلاميذه في مجال الأدب كثيرون ، من أبرزهم الأمير عادل أرسلان . ثم ضاق بهذه المهنة ، وأحب الصحافة ، ولا سيما بعد أن انطلقت من عقابها على أثر الانقلاب العثماني وسقوط دولة السلطان عبد الحميد ، فأنشأ مجلة « البرق » الأسبوعية ، وحشد لها أقلام شعراء الأمة العربية فكانت مجلته سجلاً لأروع قصائدهم .

ونخاض الأخطل معركة الحرية ، فكانت له مواقف عربية يذكروها التاريخ .

عمل - أول ما عمل في هذا المعترك - سكرتيراً لحزب الأرز ، الذي نهض قبيل الحرب العالمية الأولى ، وكانت رياسته الشرفية للحبيب باشا السعد ، ورياسته العاملة للأمير شكيب أرسلان ، وكانت رسالة هذا الحزب تركز في المطالبة باستقلال لبنان ، وانفصاله عن طاغوت الحكم

العثماني ، وتوسيع رقعته الجغرافية ليعود إلى حدوده التي كان عليها قبل
قبل سنة ١٨٦٠ .

ذلك أن لبنان يومئذ يقع تحت طائلة حكم دولي ، أرساه البروتوكول
المعقود بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية ، وكان هذا البروتوكول
بمناخه دستور يمنح أبناءه لوناً من الحكم الذاتي ، وإن كان يقيمهم رهن
نيرين : السيطرة الدولية ، والسيادة الرمزية للإمبراطورية العثمانية . كما
أن البروتوكول قلّم حدود لبنان ، وأضاف منها إلى جيرانه ، فكان من
مطالب حزب الأرز استرداد ما ضاع من أرض لبنان ورده إلى أصله .

وشبهت نيران الحرب العالمية الأولى ، وماتت روح الانقلاب في
نفوس الأتراك ، فعادوا إلى سابق عسقمهم وطاغوتهم ، وراحوا يطاردون
أحرار الأمة العربية في كل بقاعها ، وينصبون لهم المشائق ويسلون
عليهم سياط الجلادين ، فلاذ الأخطل الصغير بالجبال هرباً من كيدهم ،
إذ كانوا يطلبون عنقه لارتفاع عقيرته بشعر الحرية ، وظل مستخفياً
عليهم بين الوهاد أربع سنوات . وانتهت الحرب العالمية الأولى بمأساة
سايكس بيكو ، التي قسمت الأسلاب العربية بين الحلفاء المنتصرين ،
فكانت مصر والعراق وفلسطين من نصيب الإنجليز ، وسوريا ولبنان
من نصيب الفرنسيين .

وعاد الشاعر الثائر إلى المعركة ، وعلت صيحاته في طلب الحرية
من برائن المستعمر الجديد ، الذي عاد إلى مطاردته كما فعل الأتراك

من قبل ، وعطل جريدته « البرق » التي كانت قد تحولت من أسبوعية إلى يومية .

ومنذ يومئذ سكث بشاره الخورى الصحفى ، لينطلق الأختل الصغير الشاعر . وخلص للشعر وأخلص له ، وراح يترنم بأجمل ما غنى طير على ربي لبنان ، فتوالت غزلياته وخرياته وبدائعه التي تمل بها العاشقون ، وترنح لها الشاربون ، وعزفها أوتار أجمل حناجر أهل الغناء ، فغنى له عبد الوهاب وفريد الأطرش وأسمهان وفيروز ، وغيرهم من بلابل الشرق .

وعاش بشاره للحب والكأس ، بالطول والعرض .
كان الجمال يهزه من أعماقه إلى آخر أيام حياته ، وكان أكبر حب في حياته هو حبه للحسناء « أديل » التي التقى بها في مطلع شبابه ، وهى شابة من بيت كريم ، فتزوجها ، ورزق منها بأكبر أولاده ، عبد الله ، ولهذا كان الاسم المحبب لديه أن يناديه أصحابه بقولهم :
يا أبا عبد الله ..

وأنجب منها بعده جوزيف وناجى ووداد .
وعاشت « أديل » في أعماق حبه الكبير .
أما الأخباريات ، فكان ملهمات . . . مجرد ملهمات . . على غرار ما أحبهن أمير الشعراء شوقي ، وقال فيهن : كل مليحة بمذاق .
ملهمات يوحين بالمعنى للشاعر — فيصوغه في قصيدة ، ثم لا يلبث أن يسعى إلى معنى جديد .

منهن الملهمة التي أوحى إليه بفكرة الصبا والجمال ، فقال :
 الصبا والجمال ملك يديك أى تاج أعز من تاجيك
 نصب الحسن عرسه ، فسألنا من تراها له ؟ فدل عليك
 فاسكبى روحك الحنون عليه كانسكاب السماء من عينيك
 ومنهن الجمال معقود الحاجبين ، الذى ألهمه قوله :

يا عاقله الحاجبين على الجبين اللجين
 إن كنت تقصد قتلى قتلتنى مرتين

* * *

قرأت الأخطل الصغير منذ صباى . . . ذلك أنه ينتمى إلى المدرسة
 نفسها التي رادها أحمد شوقي : مدرسة الجزالة والخصوبة والثراء الموسيقى
 والإنسانية في سمو قدرها . فلما التقينا بعد ذلك لأول مرة ، وجهاً لوجه ،
 في أحضان لبنان ، تعانقنا كأننا صاحبان على شوق منذ سنين .
 كان هذا اللقاء في يوم مشهود . يوم أن قرر لبنان تنويع شاعره
 الأكبر في مهرجان كبير ، دعيت إليه وفود الدول العربية ، وذهبت
 إليه ممثلاً لشعراء جمهورية مصر العربية ، والمجلس الأعلى لرعاية الفنون
 والآداب ، وجامعة الدول العربية .

وكان مهرجاناً رائعاً ، لم تشهد الأمة العربية سابقة له إلا مهرجان
 شوقي ، يوم توج أميراً للشعراء .
 ولقد أقيم حفل الافتتاح لمهرجان الأخطل في مسرح اليونسكو

بيروت ، واحتشد لبنان كله فى المسرح وفيما حوله ، وذهب رئيس الوزراء إلى بيت الأخطل ، ليأتى به إلى الحفل فى موكب رسمى حافل ، وكان ممثل رئيس الجمهورية عند الباب فى استقبال الشاعر العظيم ، وعزفت الموسيقى السلام الوطنى عند مقدمه ، ووقف له الوزراء والسفراء والكبراء ووفود الدول المشتركة فى المهرجان .

واستمر المهرجان أسبوعاً كاملاً ، حفلت أيامه ولياليه جميعاً بحفلات التكريم وآيات عرفان الجميل للشاعر الذى خلد الحب وقدس الجمال .

ومع هذا لم يكن الأخطل الصغير شاعر الحب والجمال وحسب ، وإنما كان صوتاً من أجمل أصوات الحرية ، ووتراً من أروع أوتار الدعوة العربية ، وآهة من أعمق الآهات المتأومة بالأم الإنسانية .

استمع إليه فى قصيدة « شرف الفتح » ، ينبه إلى حقد الغرب على الشرق لما لهذا من أصالة لم تتوافر لذلك ، ثم ينتهى إلى أن عظمة الدولة العظمى لا يهيتها لها استعبادها لرقاب العباد ، وإنما يهيتها لها تحرير رقاب العباد .

يقول بشارة :

ليت شعرى ، ماذا جئنا على المغرب	لنشوى على يديه ونقلى ؟
أأنا من أفقنا تطلع الشمس	... فنعطى الغذاء حباً وبقلا ؟
أأنا من صدرنا ولد الحب	... الذى شيد الحضارة قبلا ؟
إن يكن ذاك ذنبنا ، وهو الله	... فهلا عاقبتم الله .. هلا ؟

إلى أن يقول :

شرف الفتح أن تحطم قيسداً عن رقاب الورى، وتنشر عدلا
وفى قصيدة « الذئاب » . . . يحمل الأخطل حملة جريئة على
حكام لبنان فى بعض العهود المتراخية المستسلمة لطاغوت الاستعمار
الفرنسى ، ويستنفر هم الشعب للثورة على هؤلاء الحكام وسادتهم ،
ويناشدهم باسم أحمد والمسيح ، عليهما السلام ، أن يتوحدوا لرد الظلم
وطلب الحرية .

يا أمة غدت الذئاب تسوسها	غرقت سفينتها ، فأين رئيسها
غرقت فليس هناك غير حطائهم	يبكى مؤبناً ويضحك سوسها
تتمرغ الشهوات فى حرماها	وتعيث فى عظامها وتدوسها
تعا لها من أمة ، أزعيمها	جلادها ، وأمينها جاسوسها ؟
رشيت مآذنها فلم تغضب لها	غضب الكرام ، وباعها ناقوسها

ثم يقول فى ختامها :

أتباع أحمد والمسيح ، ألا انهضوا أتباع حرمتها وأنتم شوسها ؟
وفى بيتين له ، عنوانها « فليخجلوا » ينحى باللوم الساخر على الشرق
الصابر على محنة الاستعمار صبراً دون صبر الكلاب .

إذا ما ضربت الكلب يعوى ، وربما تفحم مؤذيه ، وعض بنابه
وفى الشرق ناس لوسحت رؤوسهم لما نيسوا . . . فليخجلوا من كلابه
وفى قصيدته « وردة من دمن » يبكى الأخطل الصغير مأساة
الأمة العربية ، ويذكر أبناءها بأنهم خير أمة أخرجت للناس ،
ويستنهم لغوث فلسطين فى كلم رائع وتغم سلسال .

سائل العلياء عنا والزمانا هل خفرتنا ذمة منذ عرفانا
المروءات التي عاشت بنسا لم تنزل تجري سعيها في دمانا
وكانت لمصريين شقيقاتها العربيات مكانة خاصة في أعماق الأخطل
الصغير. ويوم وفاته ، كان أصدقاؤه في مصر يتلقون العزاء فيه كأنهم
بعض أهله ، بل لعل أهله أنفسهم أحسوا ذلك ، فبعثوا يعزونا فيه
قبل أن نمشي إليهم بالعزاء .

وهو في قصيدة « مرحباً مصر » يكرس الوشيجة التي تشد لبنان إلى
مصر ، وشيجة المجد العريق في كليهما :

مرحباً مصر مرحباً ، كل أهل لك أهل ، وكل صدر محل
ليس تألو الرياض أن توقظ الزهر . . . وأن تجمع الشدا ، ليس تألو
لتريق الأريج سكباً وتهنائاً . . . على وجه مصر حين يطل
مرحباً مصر ، يا شقيقتنا الكبرى . . . ويحلو ترديد مصر ويعلو
نحن فرعان ألف الشرق قلبينا . . . على الحب ، والحضارة أصل
معجزات الزمان منكم ومننا زين جيد الوجود والدهر طفل
هرم تجسم العظام فيهم وسفين على البحار يدل
وقصيدة الأخطل في رثاء سعد زغلول ، ولاسيا مطلعها الذي اهتزت
له المنابر ، ووضعت يومئذ في منزلة الخليفة الشرعي لأمير الشعراء
أحمد شوقي :

قالوا: دهمت مصر دمياء فقلت لهم : هل غيَّض النيل أم هل زلزل الهرم ؟
قالوا: أشد وأدهى ، قلت : ويحكمو
لأذن لقد مات سعد وانطوى العلم

١٠٣

لم لا تقولون إن العرب قاطبة تيتيموا .. كان زغلول أباً لهمو
لم لا تقولون إن الغرب مضطرب؟ لم لا تقولون إن الشرق مضطرب؟
ثم يقول في إشارة جميلة إلى وحدة عناصر الأمة :

جاء النبيون من قبل ، فما لأموا وجاء سعد ، فشمّل الشرق ملتئم
القاتل الحق لا تنفى أعتته والواحد الفرد في أثوابه أُمم
لطف المسيح مذاب في محاجره وعزم أحمد في جنبه يحتدم
صلى عليه النصارى في كنائسهم والمسلمون سعوا للقبر واستلموا

وفى رثاء شوق ، صعد الخليفة إلى عرش سلفه في قصيدة
انزع بها هذا العرش ولم يقو على منافسته يومئذ أحد . قال
الأخطل :

قف في ربي الخلد واهتف باسم شاعره قف في ربي الخلد واهتف باسم شاعره
وامسح جبينك بالركن الذي انبلجت وامسح جبينك بالركن الذي انبلجت
إلهة الشعر قامت من ميامنه إلهة الشعر قامت من ميامنه
والحور قصت شذوراً من غداثرها والحور قصت شذوراً من غداثرها
أسراب مريم تلهو في خمائله أسراب مريم تلهو في خمائله
والملهون ، بنو هومير ، ما تركوا والملهون ، بنو هومير ، ما تركوا
قال الملائك : من هذا ؟ فقيل لهم قال الملائك : من هذا ؟ فقيل لهم
هذا الذى نظم الأرواح فانظمت هذا الذى نظم الأرواح فانظمت
هذا الذى رفع الأهرام فى أدب هذا الذى رفع الأهرام فى أدب

فسدرة المنتهى أعلى منابره فسدرة المنتهى أعلى منابره
أشعة الوحي شعراً من منابره أشعة الوحي شعراً من منابره
وربة النثر قامت من مياسره وربة النثر قامت من مياسره
وأرسلتها بديلاً من سناثره وأرسلتها بديلاً من سناثره
ورعط جبريل يحبو فى مقاصره ورعط جبريل يحبو فى مقاصره
لما أهل لهم سججاً لطائره لما أهل لهم سججاً لطائره
هذا هوى الشرق ، هذا ضوء ناظره هذا هوى الشرق ، هذا ضوء ناظره
عقداً من الحب ، سلك من خواطره عقداً من الحب ، سلك من خواطره
وكان فى تاجها أعلى جواهره وكان فى تاجها أعلى جواهره

شاعر الأقطار العربية

خليل مطران

سررت فى العمر مره	وكنّت أنت المسرّة
. كانت حياتى روضاً	وكنّت فى الروض نضرة
وكان غصناً شبايى	وكنّت فى الغصن زهره
وكان فكرى سماء	وكان حبك فجسره
وكان حسنك يوحى	إلى يراعى سرّه
وكان لحظك يهدى	إلى يبانى سحره
وكان تغرك يعلّى	على سماعى دره
وكان طيبك يهدى	إلى ثنائى نشره
وكنّت للروح روحاً	وكنّت للعين قره
قد كان هذا ولكن	مضى وأخلف حسره
فبت لا شىء إلا	حالين : ذكرى وعبره

« كان » . . . هو عنوان هذه القصيدة التى تسيل رقة وموسيقى وألماً وحسرة على حبيبة راحلة .

كان ذلك فى سنة ١٨٩٧

وكان الشاعر خليل مطران ، وهو يومئذ شاب فى الخامسة والعشرين من عمره ، يروح عن نفسه فى أحد متنزهات القاهرة ، حين ساق القدر إلى طريقه نحلة . . . نحلة صغيرة . . . بدلت تاريخ حياته ، وجعلت بقية عمره حباً وشعراً ودموعاً وذكريات . . !

لقد وقعت النحلة على فتاة كانت تمشى في المتنزه . فليستها ،
فتلوت الفتاة من ألم اللسعة ، فتأود قلب الشاعر الشاب خليل مطران
وحقد على النحلة ، وهم يطير خلفها ليصرعها انتقاماً للحسناء . وضجرت
الحسناء . ثم عطف عليه بنظرة داعية ، وتحدا ، وطال الحديث .
ونظم مطران يومئذ مطلع ملحمة الكبرى « حكاية عاشقين » :

أفتسدى من لستعها نحلة تطلب وردا
ظنت الوجنة ورداً فأتت ترشف شهدا

ومرت الأيام ، والحب يكبر وينمو ، ومطران يطلع على الناس كل
يوم بقصيدة تذب وجداً ، وهو مع كل هذا جد حريص على أن
يكرم عن الناس اسم محبوبته ، فيبتدع لها في كل قصيدة اسماً جديداً ،
فهى مرة ليلى ومرة هند . . . ومرة سعاد .

وهى تسأله في ذلك مسرّية متشككة ، فيقول لها :

يامنى القلب ونور العين مذكنت وكنت لم أشأ أن يعلم الناس بماصنت وصنت
إن ليلاى وهندى وسعادى من ظننت تكثر الأسماء لكن المسمى هو أنت

ويطراً على قصتها ما يطراً على قصص الحب المسرحية من انفعالات
وتطورات وأحداث . . إلى أن تنهى القصة بمرض محبوبته بداء عضال ،
وتصعد روحها إلى بارئها ، وتترك وراءها شاعراً يقسم بحبها أن لن تكون
في حياته امرأة بعدها . . .

وينثر الخليل بقسمه ، ويعيش أعزب إلى آخر يوم من حياته ،

لا ينساها ، ولا ينسى أن ينتزع من أعماق قلبه في كل عام قصيدة ينظمها في ذكرى وفاتها .

ومن هذه « الحوليات » قصيدة « كان » التي بدأت بها الحديث .

* * *

من أين جاء هذا الشاعر ؟

كانوا يسمونه شاعر القطرين . أى مصر ولبنان . وبعد وفاة شوقي وحافظ لقبوه بشاعر الأقطار العربية .

وفى الحق أنه بنسبه خليف بهذا اللقب ، فأسرته تنفرع من الأزديين الذين كانوا يسكنون في الأزمنة البعيدة أرض اليمن ، ثم نزحوا إلى الحجاز ، وهبطوا عند نبع غسان ، فسموا بالغسانية .

ثم رحلوا إلى بلاد الشام حيث استقروا واعتنقوا المسيحية .

وإلى هنا نرى أن مطران يمني حجازي شامي ، والشام يومئذ تشمل سوريا ولبنان قبل أن يتندع الاستعمار الحدود بينهما ، فهو على هذا يمني حجازي سوري لبناني .

ثم هو بعد ذلك مصرى ، فقد قضى جل حياته في مصر يشارك في أحداثها ، ويجاهد مع مجاهديها ، ويتغنى بنيها وأهرامها وأعجادها . وهكذا أقول إنه أصدق شعراء العرب تمثيلاً للقومية العربية .

* * *

وفى مصر ، اشتغل الخليل بالصحافة .

وبدأت السلطات تطارد الأقلام الحرة ، وتحارب الصحافة بسيف
قانون جائر للمطبوعات ، فنظم الخليل أبياتاً مخلدة لم تزل تروى في كل
جيل كلما أملت بالصحافة محنة من محن الرأى .

قال يخاطب الحاكمين :

شردوا أخيارها برّاً وبحراً	واقتلوا أحرارها حسراً فحسراً
إنما الصالح يبقى صالحاً	آخر الدهر ويبقى الشر شراً
كسروا الأقلام ، هل تكسيرها	يمنع الأيدى أن تنقش صحراً ؟
أقطعوا الأيدى هل تقطيعها	يمنع الأعين أن تنظر شداراً ؟
أطفئوا الأعين هل إطفائها	يمنع الأنفاس أن تصعد زفرى ؟
أخذوا الأنفاس ، هذا جهدكم	وبه منجاتنا منكم . فشكراً !
وكان رئيس الوزراء يومئذ مصطفى فهمى ،	ربيب الإنجليز ،
فتوعد مطران بالنقى ، فلم يهتز وكتب	هذه الأبيات وعنوانها « مقاطعة » .

أنا لا أخاف ولا أرجى	فرسى مؤهبة وسرجى
فإذا نبا بى متن بر	فالمطية بطن لسيج
لاقول غير الحق لى	قول وهذا النهج نهجى
الوعد والإيعاد ما	كانا لدى طريق فلج

* * *

كانت مدرسة الخليل في الشعر غير مدرسة شوقي وحافظ . . .
صحيح أنه بدأ مقلداً ، وصحيح أنه حاكى شعراء زمانه في أغراض
الشعر الشائعة في ذلك العصر ، من مديح وزئاء وإخوانيات . ولكنه

حينما نضجت شاعريته ، كان قد استقر على مدرسة جديدة يومئذ في الأدب العربي ، هي المدرسة الرومانسية التي ألفت بها إليه ثقافته الفرنسية . وبرزت لأول مرة في جيله وحدة القصيد في الشعر العربي .

وكان شوقي يحفل أول ما يحفل بللوسيتي ، وحافظ باللفظ الرنان ، أما مطران فبالخيال البعيد ، وإن ضاعت معه الموسيقى الأخاذة أو اللفظة الرنانة .

وأثرت مدرسته الجديدة في الكثيرين من شعراء مصر في عصره ، وفي طليعتهم إبراهيم ناجي وعلى محمود طه وأبو شادي وغيرهم ، كما أثرت في شعراء المهجر جميعاً ، وإن كان أولئك هؤلاء قد حرصوا على الإفادة من مدرسة مطران ، دون أن يفرطوا في موسيقى الشعر .

* * *

أما نظرية مطران في الشعر فأدعه بنفسه يتحدثكم عنها :

« استقلت لي طريقة في كيف ينبغي أن يكون الشعر ، فشرعت أنظمه لترضية نفسي حيث أتخلى ، أو لتربية قومي عند وقوع الحوادث الجلتى ، متابعاً عرب الجاهلية في مجارة الضمير على هواه ومراعاة الوجدان على مشهاده ، موافقاً زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب ، لا أخشى استخدامها أحياناً على غير المؤلف من الاستعارات والمطروق من الأساليب .

« قال بعض المتعنتين الجامدين ، من المنتطعين الناقدين ، إن هذا شعر عصرى ، وهموا بالابتسام . فيا هؤلاء ، نعم هذا شعر عصرى ، وفخرى أنه عصرى ، وله على سابق الشعر مزية زهانه على سالف الدهر » .

١١١

وبعد هذا .. أسوق رأى الأستاذ العميد فى شعر مطران .
قال الدكتور طه حسين موجهاً خطابه إلى مطران :
« إنك زعيم الشعر العربى المعاصر ، وأستاذ الشعراء العرب المعاصرين .
« أنت حميت حافظاً من أن يسرف فى المحافظة حتى يصبح شعره
كحديث النائمى .
« وأنت حميت شوقياً من أن يسرف فى التجديد حتى يصبح شعره
كهذيان المحمومى » .
وقال الدكتور محمد حسين هيكل :
« عاش مطران للحاضر فى الحاضر ، وجذب جيله ليجعله حاضراً
كذلك .
فشعره وأسلوبه وتفكيره كلها حياة ، جلت فيها الذكرى ، وعظمت
فيها الحيوية .
« ولهذا تراه حين يتحدثون عن مطران ، يتحدثون عن الشعر
والتجديد فيه » .





الشاعر القسري

رشيد سليم الخوري

إنه لم يولد في «البرbare» .. بل ارتدى هناك قميصه الترابي فانتسب إليها .
ولكنه ولد مع الأعاصير في الغابات ومع الزلازل في الجبال
ومع الصواعق في البحار ولد مع الندى في الفجر
ومع الأزاهير في الربيع ومع البلبل في الجنان
ومع الجمال في نشوة نيسان ولد مع الأسطورة في عبقر
ومع الأنبياء في الوادي المقدس ومع الرؤى في ومضة الروح
ومع السحر في أهذاب العذارى

ولد مع الدمع الأخرس اللاعب في غصة اليتيم ، وزفرة المنكوب .
وعثرة الكريم ، وكربة المظلوم .
ولد الشاعر القروي مع أمته في شروقها وغروبها ، ومدها وجزرها ،
وخمرها وخلّها .

* * *

بهذه الصورة الرائعة من البيان : وصف أحد أدباء المهجر الأمريكي
ميلاد قديس القومية العربية ، الشاعر رشيد سليم الخوري ، الذي عرفه
قراء الأدب في هذا الجبل باسم الشاعر القروي .
ولكن . . لماذا نسميه قديس القومية العربية ؟
لأنه غني ، برغم أنه عاش جلّ عمره ، أو كله ، لا يملك زاد يومه !
ولأنه فدائي برغم أنهم رموه بالخيانة !

ولأنه شاعر خالداً . . . ولو أنهم أرادوا له ولشعره الفناء !
ولأنه قديس . . . ولو أنهم آثموه بالزندقة والإلحاد !
ولكى نصل إلى موطن الحقيقة من قوله وقول خصومه ، ينبغي
لنا أن نعرف قصة هذا الشاعر .

* * *

ولد في عام ١٨٨٧ في ضيعة صغيرة في لبنان ، اسمها البربرة .
وأخذ نصيبه اليسير من العلم ، ثم اشتغل بالتدريس إلى أن مات
أبوه ، ولم يخلف له إلا مسؤوليات ثقيلة ، وديوناً أثقل .
وسمع الشاعر بقصة الذهب المنشور على أرض أمريكا الذي نرح
إليه آلاف من بني قومه من قبل ، يجمعون منه ما يجمعون دون أن
ينتهي حتى أصبح منهم السراة وأصحاب الملايين فنرح بأسرته إلى هناك .
كان هذا عام ١٩١٣ .

وهناك واجهته قصة الذهب المر .
إن عليه أن يبدأ كما بدءوا جميعاً .

عليه أن يحمل على ظهره « الكشة » . . . أي « الخرج » . . .
الخرج الثقيل المصنوع من الزنك ، الذي حدثكم عنه ، وأنا أحدثكم
عن الإلباس فرحات . . يضع به ما يشاء من جوارب أو أربطة عنق
أو أوراق وأقلام ومساطر . . . إلى غير ذلك . . . ويطوف به في
الطرق ، ويتنقل به بين البلدان ، يقرع الأبواب منادياً على بضاعته
وكان رشيد في تجواله هذا يحمل العود إلى جانب الكشة .

ومنا يجب أن أذكر أن شاعرنا كان طروباً ، حسن الصوت ،
 حلو الإيقاع ، يعشق الموسيقى ويحسن العزف على العود ، ويطيّب له
 أن يلحن وينظم الشعر ويغنيه .
 وكان إلى جانب ذلك قد برع في صناعة أربطة العنق ، وملأ بها
 وبغيرها كشته ، وجعلها تجارتها .

* * *

وأدعه بعد ذلك يروى بنفسه بقية القصة :
 « حملت صندوق الزنك مملوءاً بمختلف السلع ، ومربوطاً بسيور
 جلدية إلى كتفى ، وضربت في ولايات أمريكا متعرضاً لأقسى مشقات
 الحر والسيول الطامية .
 « كنت أرفع بصرى إلى السماء كلما أمطرت ، وأغنى العتابة حتى
 يمتلئ فمى بالغيث المدرار .
 « ثم اشتدت الأزمة التجارية أثناء الحرب ، وكثر العمال العاطلون
 حتى ملأ المتشردون طرقات العاصمة ، فعمدت الحكومة إلى قيد
 أسماهم وإيوائهم في باحات المخافر (أقسام البوليس) يؤمنها كل مساء ،
 ويلقون بأجسادهم المهوكة على حبال مشدودة بين حيطانها .
 « فإذا أصبح الصباح ، حلّ الموكلون بهم أطراف الحبال ، فسقطوا
 على وجوههم ، ثم خرجوا يهيمون .
 « وقد طال سعي شهوراً في تلك الأثناء ، ولم أجد مرزقاً ،
 حتى استحكمت حلقاتها ، وفرغ آخر فلس من هيبانى ، ولكن . .

١١٧

« فى تلك الليلة بالذات (أى فى الليلة التى لم يكن بها بد من أن ينضم الشاعر إلى قطيع الصعاليك لينام على حبل المخفر) قبض الله على أحد هواة العود ، فشرعت فى تعليمه مستلفاً أجرتى .. ثم تكاثر زملاؤه فاطمأننت إلى العيش » .

تلك فترة من حياة الشاعر . . . اشتغل فيها بتعليم العود ، ثم بتعليم اللغة العربية . . . ثم عاد إلى التجارة . . . ثم . . . أفلس . . . وعاش طول حياته عيش الكفاف ، إلى أن عاد إلى وطنه الأول فى سنة ١٩٥٩ .

* * *

وقبل أن نروى قصة عودته ، نعود إلى قصة نصف القرن الذى عاشه فى المهجر الأمريكى ، من زاوية غير زاوية العيش .

كان كل هم بنى قومه هناك أن يجمعوا الذهب . . . أما هو ، فإنه لم يعد يده إلى ذلك الذهب ، ولم يجعله همّاً من هموم حياته .

كان كل همه أن يستنفر قومه للجهاد من أجل تحرير الوطن العربى وإعلاء شأن القومية العربية .

وقد كانت هذه الدعوة — التى يؤمن بها اليوم كل عربى — كانت يومئذ حلاً أقرب إلى الخرافة .

ولكن صاحبنا حمل رسالتها ، وراح يبشر بها فى كل مكان ، فلم يكن يسمع بحفل وطنى إلا طرح كشته أرضاً ، وسار إلى الحفل ، واعتلى منبره يدعو للقومية العربية .

يقول الشاعر : « كنت أقطع عن التجوال شهراً كاملاً ، مضحياً بأجرى ، ومنفقاً من جيبى ، لأنظم قصيدة طلب منى إلقاؤها فى حفلة وطنية . ويشهد الله أننى ما دعيت إلى الكلام فى مناسبة إلا وسخرتها للغرض الذى استبد بمشاعرى ، أو فاجأت الحفل بموضوع من عندى للغرض ذاته » .

* * *

وحاربوه

حاربه الخونة والمتعصبون الضالون حرباً لاهوادة فيها . . .
لأنهم الذين أنكروا عروبة لبنان منذ أجيال ووهبوه لفرنسا ،
وزعموه ضيعة فرنسية .

وأرادوا أن يشتروا ضمير الشاعر ، ولعل بعض مقدرى أدبه قد أحسن النية فانضم إليهم فى الدعوة إلى اكتتاب لشراء بيت للشاعر القروى ، خليق بمكانته .

ولكن الشاعر اعتذر من عدم قبول هذه الهدية ، وأصر على الاعتذار ، وقال فى رسالة لصاحب له : « ألا ترى أن المكافأة المادية تنزل الشاعر عن عرش إباءه ، وتحد من حرية قلمه ، وتختفصوته وتفقد سحره وتأثيره ؟ فأننا أشعر أنى أخسر بهذه الحملة أكثر مما أربح ، ولو شيدوا لى القصور . إن أمنتى بعد هذه السن التى بلغتها ، هى قبر فى وطنى ، لا قصر فى غربتى ، فالكفاف يكفينى ، والغنى لا يغنينى » .

هكذا عاش الشاعر القروى فى غربته قرابة نصف قرن ، وكل هم

الذين حوله أن يجمعوا الذهب وكل همهم أن يترك قلوبهم نحو الوطن ،
وأحلى أمانيه أن يدفن في تراب الوطن .

عد شاعرنا قصة هذا القصر الذى أرادوا أن يهبوه لياه ، مساساً
بضميره فسات حالته النفسية ، واعتلت صحته ، إلى حد أنه ارتقى على
سرير بأحد المستشفيات ، حيث أنفق كل ما كان معه ، ثم لم يجد بداً
من بيع ما لديه . . عوده وكتبه . . ليشتري ثمن الدواء .

الرجل الذى رفض القصر . بات لا يجد ثمن الدواء !

ولكى تعلم مكافأة هذا العود عنده ، اسمعه ينشد هذه الأبيات :

أين يا هند أنت أين ؟
لترى . . آه لو تريسن
شبحاً باسط اليدين
يسكب الدمع جدولين
أحمرين
كل حظى من الوجود
قلم ناحل . . وعود
منهما .. والورى هجود
أتسلى ببلبلين
شاديين

ونعود إلى المعركة . . .

لقيت البلاد العربية ألواناً صارخة من الظلم على يد الدولة العثمانية .
فلما قامت الثورة العربية سنة ١٩١٧ ، قرر الشاعر القروي أن
يذهب إلى الميدان ويستشهد في معركة التحرير.. وقال :

لنا وطن هلا سمعنا نحييه وهلا رأينا ضعفه وشحوبه
حملت صليبي قاصداً أرض موعدي فن شاء فليحمل ورأى صليبه
ولكن أصحابه أبوا عليه اللهاب ، ولم يمكنوه من الرحيل . .
ولعلك عرفت من البيت الأخير أنه شاعر مسيحي مخلص لعقيدته ،
يشبه نفسه بالمسيح عليه السلام في سيره لدعوته وهو يحمل الصليب
ويدعو الناس إلى الزحف المقدس .

أذكر هذا؛ ثم اعلم بعد هذا أن الدولة العثمانية دالت بعد الحرب
العالمية الأولى ، وجاء الاستعمار الفرنسي يجرم على صدر سوريا ولبنان .
وهنا . . يهب الشاعر مرة أخرى نائراً على الاستعمار الجديد
يصرخ في وجه قومه أن يأخذوا بدعوة محمد في الجهاد ، ويتركوا دعوة
المسيح إلى المحبة والسلام حتى يحرروا أرض الوطن من رجس فرنسا :

إذا حاولت رفع الظلم فاضرب بسيف محمد واهجر يسوعا
فيا حملاً وديعاً لم يخالف سوانا في الوري حملاً وديعاً
غضبت لذات طوق حين بيعت ولم تغضب لشعبك حين بيعا
ألا أنزلت إنجيلاً جديداً يعلمنا إباء لاخنسوعا
قال القروي هذا ، فثار عليه المتعصبون وأتهموه بالزندقة والإلحاد .

ولكن القروى لم يرتد عن دعوته ، بل مضى يضاعف حملته
للجهاد ، ويبعث الصيحة التى تدعو إلى تحرير جميع الشعوب العربية ،
ويقول فى عبارة حريثة إن الكفر الذى يوحده هذه الأمة ، خير من
الإيمان الذى يفرقها .

بلادك قدّمها على كل ملة ومن أجلها أفطر ومن أجلها صم
لقد صام هندى فرّوع دولة فهل صار صعباً صوم مليون مسلم ؟
هبونى عبداً يجعل العرب أمة وسيروا بجهنمى على دين « برهم »
سلام على كفر يوحده بيننا وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم
وقد لى شعر القروى صدهاء فى لبنان يومئذ .

وهذه قصة يرويها أديب لبنانى . واسمه « محمد قرعلى » نشأ بائع
صحف ، ثم قرأ وكتب وأصبح من الأعلام .

يقول إن الشاعر القروى فى عهد الاحتلال الفرنسى كان يرسل
قصائده الوطنية إلى أصلغائه ، فيطبعونها سرّاً فى نشرات ، ويعطونه
لأياها - قرعلى - ليبيعها فيما يبيع من الصحف ، فى غفلة عن عيون
الشرطة ، وكان يبيع أقصوصة الشعر بخمسة قروش .

وذات يوم جاءت قصيدة نارية للشاعر القروى ، تناول موضوع
الساعة يومئذ فى لبنان ، وهو المجلس النيابى الزائف الذى أقامه المندوب
الساى الفرنسى هناك ، ومنها :

وطن تحررت العبيد للده وأذل منه رئيسه والمجلس
جاء المفوض بالعليق فحمحموا وثنى عليهم بالشكيم فأسلسوا

لا تسلقوهم بالكلام فإنهم جلسوا وهل نخبوا لكيلا يجلسوا ؟
 في كل كرسى تسند نائب متكلف أعمى أصم أخرس
 وصادفت هذه القصيدة هوى كبيراً في نفوس الشعب ، وباع منها
 « القرع على » آلاف النسخ .
 على هذا العهد عاد القروى من غربته ، نخاوى الوفاض ، إلا من
 ثروة الشعر وكنز الوطنية .
 وبقي في الشام حتى زالت محنة شمعون ، فأرسل إليه البطريق المعوشي ،
 يسأله أن يعود إلى لبنان ، فعاد ، ولا يزال يعيش حيث ولد في البر بارة .



شاعر البحر الأبيض

صالح شرنوبى

هذا شاعر موهوب من أبناء الموت . . .
كانت حياته في كل حركاتها وسكناتها تشير إلى أنه لا بد لاحق
بهؤلاء الموهوبين من شعراء الشباب ، الذين قضوا في عمر الزهور .
هو كالمعشري ، والشابي ، وفوزي المعلوف ، وغيرهم ممن احترقوا
حسناً وعاطفة ، ورأوا أن الدنيا لا تتسع لأمانهم ، وأنهم خلقوا ليعيشوا
في عالم من النور لا من التراب .

* * *

في صبيحة يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩٥١ ، صحت على برقية
مشثومة من آل شرنوبى يبلطيم هذا نصها :
« الأستاذ صالح على شرنوبى توفى إثر حادث أليم ، البقاء في
حياتكم » .

ولست بواصف وقع الخبر على نفسى ، ولكن حسبى أن أذكر أن
العرف قد جرى على أن أهل الراحل هم الذين يتلقون العزاء فيه من أصحابه .
أما هذا الشاعر ، فإن أهله قد رأوا من حق الوفاء أن يسبقوا
إلى عزائى فيه قبل أن أعزيهم . فإنهم فقدوه ولداً عزيزاً ، أما أنا فقد
فقدته شاعراً كان لى فخر الكشف عن «واهبه ورعايته وتوجيهه ،
وتهيته أكثر من سبب من أسباب الاستقرار لنفسه التى لم تكن تحب
أن تستقر .

١٢٥

فى سنة ١٩٤٦ ، كنت أقدم فى الإذاعة المصرية برنامجاً عنوانه « براعم الشعر » .

وكانت غايتى من هذا البرنامج أن أكشف عن جيل من الشعراء الناشئين المغمورين ، الذين لم تواتهم فرصة الخروج إلى النور ، عسى أن يكون فى هذا التشجيع لهم ما يعرف الناس بهم ويزكى مواهبهم ، حتى إذا آن لنا — نحن المخضرمين — أن نستريح ، خلفنا وراءنا جيلاً جديداً من الشعراء يملأ الفراغ ويؤمن بأننا قد أدينا نحوه بعض الواجب الذى لم يؤده سابقونا من الشعراء .

وقد تلقيت لحساب هذا البرنامج مئات من القصائد ، من جميع ربوع المشرق والمغرب العربيين ، ولكنى لم أجِد فيها جميعاً هذا البريق الذى وجدته فى قصيدة أو اثنتين ، كان صاحبهما صالح شرنوبى .

ودعوته على غير معرفة ، فإذا هو شاب فى نحو الثانية والعشرين من عمره يومئذ (وهو من مواليد ٢٦ مايو سنة ١٩٢٤) طويل القامة رشيقها ، أسود العينين ، عربى السمات ، فيه أمثلة ظاهرة من جمال الرجولة ، وفى نظرتة بريق وحدة ، وفى ابتسامته عذوبة ودماثة .

كان يومئذ شيخاً معممأ ، وكان طالباً بالسنة النهائية بالقسم الثانوى من الأزهر الشريف . ولكنه كان ثائراً على عمامته وجبته وقفطانه ،

ثائراً على المناهج التي يتلقاها في الأزهر ، بل ثائراً على الحياة ، وعلى نفسه ، وعلى كل شيء .

وبدأت علاج نفسه بأن حرصته على استكمال دراسته ، وما هي إلا أيام حتى نال ثانوية الأزهر . ويومئذ نصحت له بمخلع العمامة ، فبدأ في زيه الجديد فتي أنيقاً ، وسعدت روحه أبما سعادة بهذا التغير . ثم كانت شدة بينى وبينه ، إذ أراد أن يهجر الدرس والمدرسة ، وأردت له أن يتم تعليمه العالى ، وأخيراً ، استطعت أن أغلبه ، فالتحق بكلية دار العلوم .

ولكن الجولة الأخيرة كانت له ، فقد سُم الشروح والمثلون والكتب الصفراء ، وهجر دار العلوم وراح يطرق الأبواب باحثاً عن عمل ، حتى وجده في مدرسة فرنسية للبنات ، يعلمهن اللغة العربية .

* * *

ولكنه كان شاعر الغزل ، فما كان ممكناً له أن يستمر طويلاً في مدرسة للبنات بغير حماقة ، ولا كان له أن يحتمل صلف الناظرة فاستقال .

وأوصيت به عند الصديق الأديب الأستاذ محمد سعيد العريان — رحمه الله — بعد أن تلوت عليه جانباً من شعره ، فأعجب به أبما إعجاب ، وسألنى أن أبعث به إليه في وزارة المعارف (يومئذ) .

وذهب الشاعر الشاب إلى وزارة المعارف ، ولكن كلمة جافة

من أحد الحراس كانت كفيلة بأن يقسم هذا الشاعر العزيز النفس
بألا يطرق باب هذه الوزارة ولو هلك من الجوع .
وكانت نهاية المطاف أن التحق بأسرة جريدة الأهرام ، في وظيفة
متواضعة بقسم التصحيح ، ولكنه رضى بها ، وظل فيها إلى أن لقي
وجه ربه ، في حادث أليم ، دهمه فيه قطار فئات تحت عجلاته
في بلده . . بلطم .

* * *

تلك هي حياته الدراسية والعملية .
أما حياته الخاصة الشاعرة ، فقد كان عندما عرفته يوشك أن
ينتمى إلى بعض الأحزاب التي كانت قائمة في ذلك العهد ، ويكتب
الشعر في مدح زعماء هذا الحزب ، ويطرى زبداً وعمراً من الساسة ،
فقلت له : يا صاحبي ، إن الحزبية ليست ميداناً للشعر الخالص ،
فاهجر ما أنت فيه واكتب الشعر للشعر وحده ، وإذا شئت ، فاكتب
لوجه الوطن لا لوجه الأحزاب .
سبع يومئذ مقالاتي ، وأطاع ، وظل على عهده حتى خطفه
الموت .

* * *

قلت لي احتفيت بشعره منذ أن قرأت له أول قصيدة ، فقدمته في
الإذاعة المصرية ، ثم أوصيت به لدى الإذاعة البريطانية ، وإذاعة
الشرق الأدنى ، ووجهته قليلاً إلى نظم الأغنية العربية والعامية ، لتكون

عزواً له على العيش ، فنجس ، وكانت له حتى في أغانيه الدارجة
فلسفة جميلة ، ولا يزال المستمعون إلى إذاعة القاهرة يذكرون له تلك
الأغنية الجميلة التي مطلعها :

ياللى عرفتوا الحياه قولوا لى معناها ليه
ولا أحسب أن شاعراً من شعراء الأغاني الدارجة قد اجتراً على
خوض هذا الموضوع البتة . أما شعره ، فحسبى منه أن أثبت هنا
قصيدة رائعة له في وصف الممثل ، وأعتقد أنها أبدع ما قيل في وصف
الممثل في الآداب العالمية .

هائم الروح بالهوى والأمانى	خالد الذات وهو كالناس فان
فيه ما فى الحياة من مشكلات	فهو فوق النهى ودون العيان
لوحة أثبت الزمان عليها	أبدى الظلال والألوان
هو كالطينة التى نحن منها	فهو كل الأنعام فى إنسان
ملك حينما يشاء له الفن	على المقام والصوب الحبان
أوحقير عريان مزقه الجوع	وأضنته لوعة الحرمان
وإذا ما أراد فهو مـلاك	قدسى مطهر صمدانى
أوغوى تضج منه السما	وات ، مريد لإعلى الشيطان
كل حى له لسان ، وهذا	وحده ناطق بألف لسان
ولقد يعجز البيان إذا عـ	ر عما يريد دون بيان
بانفعالات وجهه الإنسانى	واختلاجات جسمه الأعوانى
بيديه .. بحاجبيه .. بعينيه	ـه . بما . لا تقوله الشفتان

عبرى أو معجز ذو افتنان
 وإلى الملتقى . ودعنى وشانى
 كوا لبكائى .. أو فاهز جواباً لأغانى
 ب محب أو كبرياء أنانى
 صباوت وفلسفات معباني
 أبداً بالوجود طوّا فتان
 وإلهيتان شيطانان
 وتنام الحياة إذ تحبوان
 يتلاشى السكون فى الهديان
 ان فى قلبه محيط الزمان
 ر يشقى بسره الخافقان
 لة تهفو إلى حدود الحسان
 ببح أنت الحلى عبد الغواني
 وهو ليرزها بلاليران
 شق يشكو هواه للشيطان
 وبجنيه ثورة البركان
 فهو كون كهذه الأكوان
 رى إذا مثل التقي وهو جان
 قد عثلت عالم الفنّان

فهو باك أوضحك ، وبلید
 وإذا حدث يداه ، فرحى
 واعذرونى . أو أنقدونى . أو اب
 وإذا حاجباه شالا فاعجبا
 وبعينيه ، ويح عينيه ، دنيا
 فهما شعلتان وهما جتان
 وهما طفلتان عربيدتان
 يحقق الكون حين تأتلفان
 وعلى ثغره . . وفى شفتيه
 شفتاه أو شاطئ البحر سى
 إن يقلبهما فما أعجب الساخ
 أو يدورهما فما أظمأ القلب
 أو يحدث عن الغرام فقد تصه
 هو إن ثار فالبسطة روماً
 وإذا ما اطمأن فالجدول العا
 ربما لتلقيه ينساب بشراً
 ليت من يحسدونه عرفوه
 حيرتى فيه مثل حيرته الكـ
 أنا ما إن وصفته ، غير أنى

كانت حياة هذا الشاعر حافلة بالحب . . . والتسامح . . . والإنسانية
 كان لا يفتأ يتبرم بالبحود الذى عاش فى بيئته إذ هو طالب بالأزهر،
 ويستنكر التزمت الذى يغمر أكثر رجال الدين .
 وكان متحرراً إلى أبعد الحدود ، وفى كل ميدان من ميادين الحياة
 والفكر .

وكان يلقي كثيراً من المحاضرات الأدبية فى جمعية أصدقاء الكتاب
 المقدس ، ويصادق كثيراً من القساوسة ، وكم من مرة رأيته وهو شيخ
 معمم يتأبط ذراع قسيس ويسير به فى أحياء الأزهر والحسين يتلو عليه
 شعره ، والقسيس مفتون بشخصيته وحديثه وشعره .
 ولست أنسى ما حييت لهذا الشاعر ، كلما قرأتها فى جمع بكييت
 واستبكييت ، قصيدة عنوانها « أختى » قالها فى وصف أخت له ، اسمها
 هيام ، جميلة ، ولكنها بلهاء .
 يقول فى مطلعها :

أختى ، قصيدة شاعر الغزل أختى ، تيممة ساحر الخبل
 أختى هيام ، وأنت من أملى لأننا الحزين عليك يا أختى
 ثم يصف لوعة أمه وأمها حين تتلفت فتجد بنات الحى قد سعدن
 فى بيوت أزواجهن ، إلا هى ، هيام ، لا تزال إلى جوارها بلا زوج
 ولا بيت ولا أمل فى المستقبل . . يقول :

وتقول أى حين تلقاك ياليت قلبى ما تمناك
 أوليت مهدك كان مثواك

لك فى بنات الحى أتراب عوسانهن لهن أحباب
فأقول والمقدور غلاب : الحظ خانك أنت يا أختى
ويسهر الساهرون فى سامر البيت ، فإذا حديتهم سخرية بهذه
الأخت البلهاء ، وضحك من بلاهتها . فإذا ناداها الكرى قامت لتنام ،
فقال الساهرون : لقد نامت تسليتنا .

أما الشاعر ، فينظر إليها فى حسرة وإشفاق ، ويقول بل نامت
مأساتنا . . يقول :

وإذا الكرى نادى الخليلينا فأجبتة وهجرت نادينا
قالوا نأى من كان يسلينا فأقول بل من كان يبكيها
ويحيل أحناناً كفاسينا ويثير فى نفسى البراكينا
وأظل أبخس منك يا أختى

قاس عليك أنا فلا تغضى إما قسوتُ فليس عن بُغض
أنا فى السماء وأنت فى الأرض

أنا فى سماء من خيالانى أحيا بفكرى وانفعالاتى
فأنأى بأرضك عن سمواتى تنأ القساوة عنك يا أختى

* * *

هذه لمحة عن حياة هذا الشاعر الذى نشأ بين تلك الأكواخ الشعرية
الجميلة المترامية على شاطئ البحر المتوسط عند بلطيم ، فى شمالى مصر ،
عيشة كلها شعر وخيال وإنسانية وعاطفية وبؤس وذبول .
ومات عند ذلك الشاطئ قبل أن يتجاوز الخامسة والعشرين .

الشاعر العملاق

عباس محمود العقاد

كان يقرأ كثيراً . . .

وكان يقرأ فى السياسة ، فيجد مصير الوطن ضائعاً بين الأحزاب والاستعمار ضياعاً يشبه اليأس . . . وكان يقرأ فى الدين ، فيشده الشك إلى دائرته بعنف . وهو يقول فى وصف هذا الشعور — فيما بعد — إنه يكفى أن يفقد الإنسان عقيدته ، ليفقد إيمانه بالحياة .

وفجأته قصة ذلك الحب اليائس فى تلك الآونة ، فقرر أن يضع نهاية لحياته . . ودخل غرفته ، وأعد السم ، ثم راح يتطلع إلى صورة أمه ليتزود منها بنظرة الوداع ، فما لبث أن ظفر من عينيها بنظرة رده عن فعلته ، فعاد يتشبث بالحياة ، ويستشعر لنسها .

ونخرج العقاد من هذا الحدث فى حياته بأن المؤمن بالله هو وحده الذى يحس بقيمة الحياة ، لأن الحياة فى نظر الملحد ، تبدأ وتنتهى بنهاية الأفراد ، أما المؤمن ، فلله حياة عنده قيمة سامية ، لأنها موضع رعاية الخالق .

أما المحاولة الثانية ، فكانت سنة ١٩٣٥ ، بعد أن اشتدت خصومته مع حزب الوفد ، وتعطلت الصحف التى كان يعمل بها ، فقامى مرارة البطالة وحرقة العوز ، فأثر الانتحار على أن يقبل عوناً من أى إنسان . . . ومرة أخرى . . . رده الإيمان بالله إلى حب الحياة .

* * *

هل كان العقاد عدو المرأة ، كما يقولون ؟
الذى أعلمه علم اليقين ، أنه ما من رجل أحب المرأة كما أحبها العقاد ..

ولكنه أحبها أنثى . . . ولم يحب لها أن تكون أكثر من أنثى . . .
 أحبها أن تكون امرأة ، وأن يكون كل ما فيها امرأة . . .
 وكانت الأدبية « ماري زيادة » — أو الآتسة م . . . كما لقبوها
 في عصرها — أول حب في حياته ، بعد حب الصبا الذي تحدثنا عنه . .
 على أنه كان حباً من طرف واحد . . . هو طرف العقاد طبعاً !
 ولم يكن العقاد فريداً في حبه « لمى » على هذا المنوال ، فقد أحبها جميع
 أدباء مصر وشعرائها في ذلك العصر ، على الويرة نفسها — وثيرة الطرف
 الواحد — كما أسلفنا القول في حديثنا عن مطران ، ومنهم أحمد لطفي
 السيد وأنطون الجميل وشبلى شميل وإسماعيل صبرى . . . وغيرهم .
 ويحدثنا العقاد عن حبه « لمى » ، فيقول وقد سئل ... هل تمنى
 أن تعود « م » إلى الحياة ؟
 — أتمنى . . . على أن تعود شابة . . . وأن تختار لها في حياتها
 الثانية آمالاً غير آمالها في حياتها الأولى ، لأنها كانت ممن تبهرن
 المظاهر . . . مظاهر الجاه والبأس ، حتى الأجوف منها ، مما لا يتفق
 مع مواهبها الممتازة في الروح والذهن .
 وهو يصف هذه الخلقة في « م » من خلال بيتين أغلب الظن أنه
 قالهما وقد غضت « م » عنه الطرف ، لفقره يومئذ .
 حسبنا منك أن نراك وإن كنت تميل الجفون للإغضاء
 وتجل الغنى ، وما الحسن إلا سلعة عند معشر الأغنياء
 وتأتى بعد هذا . . . سارة . . . أكبر حب في حياته .

١٣٧

سارة ... التى كتب فيها يتيمته الوحيدة فى عالم الرواية ، ولا ينكر العقاد أن قصته مع سارة هى القصة للواردة فى الرواية وأن «همام» بطل الرواية هو العقاد نفسه .

ويحدثنا عن سارة فيقول :

— كانت أجمل من رأيت فى أيام فتنتى وشغفى بالجمال . كانت حزمة من الأعصاب تسمى امرأة ، استغرقتها الأنوثة فليس فيها إلا أنوثة . . . ليست غواية الجسم عندها كمجوع الحيوان يشبعه العلف ، ولكنها كرعدة الحمى وصرعة الفرس الجموح ، يتبعها النشاط والمراح كما يتبعها الإعياء والبكاء . . لها قراسة نفاذة فى كل ما بين الجنسين من صلة . . . تظن لما فى نفس المرأة لأنها امرأة ، وتظن لما فى نفس الرجل لأنها امرأة !

ويستطرد العقاد فى اعترافه بحكاية « سارة » فيقول :

— هكذا بدأت قصتنا عنيفة فائرة . . كانت أنثى جميلة ... وكنت أنا شاباً عنيف الطبع قوى الإحساس بنفسى . كانت تزورنى كل يوم جمعة ، فى الساعة الخامسة مساء . وقبل حاول موعدها بربع ساعة ، كنت أطل عليها من ثقب النافذة أترب قدموها فى الطريق ؛ فإذا احتوانا البيت ، فالعالم كله معى داخل البيت . كنا نقضى يوم الجمعة فى خلوة كاملة . وكنا نقوم نحن الاثنين بالخدمة . كان يوم الجمعة هو يوم الحب فى حياتى .

ويسرح العقاد قليلا ، ثم يمضى فيقول :

— وليوم الجمعة قصة ... فهو يوم الحب عند اليونان ، وكذلك مدلوله عند العرب . فهم يقولون عن يوم الجمعة إنه يوم العروبة — بفتح العين — وهى البنت اللعوب الجميلة .

ثم يتحدث « العقاد » فى أمى عن نهاية قصته مع « سارة » .
— بدأت نهاية القصة بالشك . . . شككت فى حبها لى ، فاستحال الوجد إلى فتور ، والشوق إلى ضجر . قام الشك فى نفسى على علامات وقرائن لم أقطع بها . . . حتى عهدت إلى صديق بمراقبتها ، وجاعنى منه الخير اليقين ، فلم أملك إلا أن أقتل هذا الحب وأسير فى جنازته .
هذه قصة سارة . . . وهى قصة يغلب عليها الحس كما ترى .
ومهما يكن من رأى ورأيت فيها ، فلا شك أنها كانت أقوى من ألهم « العقاد » . . . ألهمته روايته الطويلة اليتيمة . وألهمته عشرات من خير قصائده . . . قال فيها :

أبما لفظة جـسـرت	من فم المرأة امرأه
تبتغى الزوج من فته	والأخلاء من فته
ليس بالجسم وحده	يعرف الجنس منشأه
وقال فيها وقد بدأت النار تهادأ :	

فرغت من الحب الذى يعقب الشكوى
بذلت له نارى ثلاثين حجة
وقال فى نهاية القصة :

تلك التى كنت أغليها وأذكرها
صباحاً ومسيماً وفى سر وإعلان

قد كنت أرحم نفسي من تذكرها اليوم أرحمها من فرط نسياني
وبعد سارة . . . هل تاب العقاد عن الحب ؟ . وهل حقد على
المرأة ؟ أبداً . . .

لقد سئل في هذا أكثر من مرة ، فكان جوابه : إن الأديب الذى
يعيش بغير حب لا يكون أديباً على الإطلاق ، لا مجرد أنه لا يجب
بل لأنه لا يحس .

وطالما استنكر « العقاد » قول من قالوا إنه لم يعد يستطيع أن يحب
بعد « سارة » ، وكان يقول إن كل إنسان معرض للوقوع فى هوة الحب
فى أى وقت ، وفى أية سن ، ولو كانت بعد السبعين .
كل ما حدث ، أن رأيه فى الحب قد تغير ، كما تغير رأيه فى
الحياة نفسها .

يقول العقاد : كنت أحب الحياة كعشيق ، تخدعنى زينتها الصادقة
وزينتها الكاذبة ، فأصبحت أحبها كزوجة ، أعرف عيوبها وتعرف
عيوبى . لا أجهل ما تبديه من زينة ، وما تخفيه من قبح ودمامة .
لأنه حب مبنى على الفهم .

وكذلك رأيه فى الحب .

وفى حياة العقاد — بعد سارة — حب كبير . . . بطلته نجمة
لامعة ، لا أحسب أن من حق أن أميط اللثام عنها ، ولكن من حق
التاريخ عليها أن تميظ هى اللثام عن قصتها مع العقاد يوماً ما . . . بكل
ما وراء هذا اللثام من رسائل وقصائد وحكايات ، لأن قصتها مع العقاد

جزء من تاريخه ، وتاريخه جزء من تاريخ الأدب في هذا الجيل .
 مرة . . . نسجت له صداراً (بلوفر) في عيد ميلاده . . . فنسج لها
 قصيدة من أرق قصائده ، يقول فيها :

هنا مكان صدارك	هنا ، هنا في جوارك
هنا ، هنا عند قلبي	يكاد يلمس حبي
وفيه منك نيل	على المودة ، حسي
ألم أنل منك فكره	في كل شكة لإبره
وكل عقدة خيط	وكل جرة بكبره ؟
هنا مكان صدارك	هنا ، هنا في جوارك
والقلب فيه أسير	مطوق بحصارك
هذا الصدار رقيب	من القواد قريب
سليه ؛ هل مر منه	إلى طيف غريب ؟
نسجته بيديك	على هدى ناظريك
إذا احتواني ، فإني	ما زلت في أصبعك

* * *

أحبها للعقاد حباً كبيراً . . .

وعرفنا يومئذ ، وبعد يومئذ ، الكثير من أمر قصة الحب هذه ،
 ثم جاءنا من يؤكد لنا هذه القصة في مقدمة الديوان الجديد
 « ما بعد البعد » . . . ويقول إن ما في هذا الديوان من شعر
 عاطفي . . . « يصور إلى حد كبير مشاعر الحب ونفحات

القلب وشعور الحب ونهاية ذلك الحب ، مما يفهمه القارى
 اللبيب بضمه إلى مثيله فى ديوان - أعاصير مغرب - فنخرج له صورة
 متكاملة لتلك المحبوبة السمراء »

ولهذه السمراء « لوحة » فى حياة العقاد . .

قصة هذه اللوحة ، أن الحبيبة السمراء بعد أن تملك قلب العقاد ،
 جاءت ذات يوم تقول له إنها قد تلقت عرضاً للاشتغال بالسينما .
 وقاوم العقاد هذه الفكرة مقاومة جبارة . لأنه ، كما يفعل كل عاشق
 كبير ، أراد أن يستأثر بها وحده ، لا يشاركه فى المتعة بجمالها الأسمر
 أحد من الناس . . قائلها :

سأترك الحسناء ملكي أنا وحدي ، أرى فيها خفايا الجمال
 إذا رأوها فاتهم نورها ولم يطبقوا منه غير الظلال
 لو لم تكن ملكي ، لما حرمت يوماً عليهم ، وهى سحر حلال
 وطالت متعة العقاد بها ، متعة روح وحس ، وسعد كما لم
 يسعد بعد مأساة سارة ، وراح يصف كل هذا فى أبيات عنوانها « سعادة
 الحب » . . . وهى أبيات جريئة لم يكتب العقاد مثلها بصراحتهما -
 فى حياته :

وأحب ما فى الحب ، أنت سألتنى عنه ، وأنى بالجويا لعالم
 متجردان .. وعلكان سعادة لكليهما ، لا يحتويها العالم
 يتمليان للصحة الكبرى ، وقد سعدا بأسعد ما رآه الحالم
 ولعلهما تناقشا فى حكاية السينما مرات ومرات . . . ولعله قال لها إنه

لا يجب أن يكون جمالها متاعاً مشاعاً للجميع ، ولعلها قالت له وهي
تحاوره ، إنه إذا كان يقصد الحلال والحرام ، فهل ما بينهما حلال ؟
ولعله أجابها بقوله: إن المرأة التي تهب نفسها لرجل واحد ، يستأثر
بها وبالمتعة بها وحده بغير شريك ، لا تتركب أمراً إذاً ، بل هي - في
عرفه - مصونة وممتنة .

هذا ما نفهمه من هذه الأبيات ، وعنوانها « أجبي » :
أجبي يا بنية واستجبي فما بخس المحاسن مستطاع
وليس الحب مبتدلاً ، إذا لم يكن في البذل تسليم مشاع
أحبك مرتين ، إذا تآنى متاع هواك ، واتصل المتاع
إذا التسليم عز على محب سوى ، فذاك صون وامتناع
ولكن حلم السيما ظل يراود السمراء ويلح عليها ، حتى تغلب على
بها للعقاد .

وعرف العقاد الأمر . . وجاءت تزوره بعدئذ ، فثار في وجهها
ثورة عارمة ، ولفظها إلى الخارج ، وأغلق الباب وراءها وقلبه يتأرجح
بين الأسى والأسف .

وأخذت السمراء طريقها إلى الشاشة ، وتألقت عليها .

فهل هدأت نائرة العقاد ؟

هل نسيها . . أوراخ يتعذب بها ؟

إن هذه الأبيات ، وعنوانها « بنت الفن » . . تكشف لنا أنه لم
نسيها ، وأنه راح يحاول أن يتقمم بالكلمة ، في عمرة شعوره بذلك اللون

١٤٣

من الشعور الذى يسميه علماء النفس « الحب - الكراهية » وهى
أبيات مرة قاسية لا ترحب بها أية مشتغلة بالفن :

أفى حجرة النوم أم قاعة العرض . . جمهور فنك مستحضر؟
ومن تعرفين؟ أمام الستار . . أم خلفه دائماً أكثر؟
وهل أنت نجم ، لأن النجوم فى ليلها أبداً تسهر؟
أمور إذا ما احتواها السؤال فالسائلون بها أخبر
فما تبررين وما تسترين بغير شعاع لهم يظهر
ولم ينسها العقاد بسهولة . . .

وراح يلتمس كل وسيلة للنسيان ، فكانت أنجح وسائله هى تلك
« اللوحة » التى أشرت إليها لإشارة عابرة .

طلب العقاد إلى صديقه الفنان المعروف صلاح طاهر أن يعينه
على النسيان ، برسم لوحة كبيرة . . . تمثل « تورته » مزرکشة فاخرة ،
تحوى أجمل ما تحوى من الحلوى ، وقد هوم عليها اللباب وتكاثرت
عليها الصراصير .

« التورته » الجميلة ترمز إلى السمراء .

والذباب يرمز إلى الجلو الذى ذهبت إليه . وأنجز صلاح طاهر
اللوحة ، وقدمها للعقاد ، الذى علقها فى غرفة نومه ، أمام مخدعه .
وبعد أيام ، وبهذه الوسيلة ، نسى العقاد . . . ولكنه خشى أن
يرفع اللوحة من حجرتة فيعاوده الحنين إلى سمرائه ، فأبقى عليها فى
غرفة نومه سنوات طويلة ، إلى أن أدركته رحمة الله .

* * *

أحسبني أغريتلك بالإيغال في شعر العقاد . بعد أن شددتلك إليه بجانب الرقة العاطفية منه .

على أن هذه الرقة العاطفية ، التي تضع لإيهامها على كل قصيدة من قصائد شاعر كناجى أو راي أو البهاء زهير أو عمر بن أبي ربيعة ، لا تضع لإيهامها على الكثير من شعر العقاد ، الشاعر الذي عاش دائماً أكثر حياته — إلا في فترات الحب منها — يفكر بقلبه ويحس بعقله .

وهذا هو سر إيمان العقاد بالشعر ، ويطور الشعر ، فهو لا يستمرى قول الكاتب الإنجليزي توماس بيكوك في رسالته عن الشعر ، إذ يقول :

« الشاعر في عصرنا هذا هو نصفهمجي يعيش في عصر المدنية ، لأنه يقيم في الزمن الخالي ، ويرجع بخواطره وأفكاره وخواجه وسوانحه إلى المأطوار الحمجية والعادات المهجورة والأساطير الأولى ، ويسير بلهنة كالسرطان زحفاً إلى الوراء . . . » .

لا يستمرى العقاد هذا الرأي الذي ينادى برجمية الشعر ، ويؤثر عليه قول فيكتور هوجو في كتابه عن شكسبير إذ يقول :

« ينادى كثير من الناس في أيامنا هذه — ولا سيما المضاربون وفقهاء القانون — أن الشعر قد أدبر زمانه . فما أغرب هذا القول ! . . . الشعر أبـر زمانه ؟ لكان هؤلاء القوم يقولون إن الورد لم ينبت بعد ، وإن



الربيع قد أصدع آخر أنفاسه ، وإن الشمس كفت عن الشروق ،
وإنك تجول في مروج الأرض فلا تصادف عندها فراشة طائرة ، وإن
القمر لا ينظر له ضياء بعد اليوم ، والبلبل لا يغرد ، والأسد لا يزجر ،
والنسر لا يحوم في الفضاء ، وإن تلال الألب والبرانس قد اندكت
ونحلا وجه الأرض من الكواعب الفوائن والأيفاع الحسان . . .

« لكنهم يقولون إنه لا أحد اليوم يبكي على قبر ، ولا أم تحب
وليدها ، وإن أنوار السماء قد خمدت ، وقلب الإنسان قد مات » .
ويخلص العقاد من الموازنة بين هذين الرأيين وإلى أن الشعر لا يفنى
إلا إذا فنيت بواعثه . . . قائلا :

« إنى لا أرى في ضروب الخطأ رأياً أخطئ من زعم الزاعمين أن
الشعر يحن إلى الماضي ويحجم عن المستقبل » .

وإذا كانت بواعث الشعر عند ناجى وأضرابه هي الحب ، والحب
وحده ، فإن بواعثه عند العقاد واسعة المدى إلى حد يكاد يلمس اللانهاية ،
فكل أمر من أمور الحياة ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وكل وجه
من وجوه بواعث الموت ، وما بعد الموت من آخرة ، هي مادة للشعر
عند العقاد ، وهذا ما يعنيه المازنى حين يقول عن صاحبه :

« إنى اطاعت من شعر العقاد على نواح كانت محجوبة عن عيني ،
وإنى وجدت فيه التعبير عما كنت أحسه ولا أكاد أدرك كنهه ، أو
ما أدرك ولا أقوى على العبارة عنه ، وإنى زدت للحياة فهماً ، وبها
شعوراً وعلماً » .

وبهذا الإمام الواسع والبواعث الضخمة جنى العقاد على صاحبه المازنى ، الذى أحس بقصور مجالات شعره أمام العقاد ، فهجر الشعر قائلاً : « وانتهيت إلى أنه لاخير فيما قرضت من الشعر ، وأن الأدب المصرى لا يزيده ولا ينقصه إذا فقدته . فكففت عن نظم الشعر ، ونقضت يدى من القريض » .

* *

أما غيبياته ، وأبرز محاولاته فيها ملحمة « ترجمة شيطان »
فهى تجربنا إلى الحديث عن مدى إيمان العقاد . وإنه لإيمان عميق ، موروث ومفهوم ومحسوس .

يتحدث العقاد عن الله فى كتابه « أنا » فيقول إن الله موجود ، وإن الفلسفة تؤكد هذا الوجود إذ تعلمنا أن العدم معدوم ، فالوجود موجود ، موجود بلا أول ولا آخر لأنك لا تستطيع أن تقول : « كان العدم قبله » ، أو يكون العدم بعده » ، وموجود بلا نقض يعترى الوجود من جانب عدم ، ولا عدم هناك . . . موجود بلا بداية ولا نهاية ولا نقص ، لأن الكامل الأمثل هو الله ، ونحن الفانيون لن نرى إلا جانباً واحداً من الصورة الخالدة فى فترة واحدة من الزمان » .

* * *

ويطول بنا الحديث عن شعر العقاد فلا ننهى فى مثل هذا القدر المحدود من الصفحات ، فلا بد لنا من أن نصطنع وقفة أخيرة نللم بها أطراف الحديث ، فنقول إن العقاد كان صحفياً وناقداً ومؤرخاً وفيلسوفاً

وقصاصاً وناظماً أغنية . . . ولكنه كان يعتد ، أكثر ما يعتد ، بكونه شاعراً ، وأن أرفع مناصب حياته أنه كان مقرراً للجنة الشعر .

وفى هذا المنصب ، خاض أكبر معارك حياته الأدبية — وهى كثيرة — مع دعاة الشعر الجديد ، المتحرر من الوزن والقافية . ومن التججى على العقاد أن يقال إن وقفته هذه من الشعر الجديد ، هى وقفة رجعية ، فالتاريخ يشهد أنه السياسى الوحيد فى عهد الملكية ، الذى وقف على منبر البرلمان يطالب برأس الملك ، وقد دفع ثمن هذه الصيحة تسعة أشهر فى السجن .

والتاريخ يشهد أنه كان سند حزب « الوفد » حينما كان الوفد يمثل الأمة .

والتاريخ يشهد أنه كان من أوائل الثائرين على الوفد حينما انحرف الوفد . والتاريخ يشهد أنه عاش ما عاش فى مجال الحزبية بلا مغنم ، لأنه ذاق شظف العيش دون أن يمد يده ، وأنه عاش عيشة النساك المتقشفين إلى أن مات ولم يترك من عرض الدنيا إلا كتبه

لم يكن عداؤه للشعر الجديد إذن عن رجعية ولا عن جمود ، فهو صاحب المدرسة العقلية فى الشعر والنقد والفلسفة ، التى لاتعترف بالجمود .

وهو صاحب أول دعوة للتجديد فى الشعر المعاصر ، مع صاحبيه عبد الرحمن شكرى وإبراهيم المازنى . وكان تجديدهم تطويراً للشكل والمضمون معاً . أما تجديد المضمون ، فلا ينكره ألد خصوم العقاد .

وأما تجديد الشكل ، فإليك صورة عذبة منه ، قصيدة « بعد عام »
منها :

كاد يمضي العام يا حلو الشئى
أو تولى
ما اقتربنا منك إلا بالتمنى
ليس إلا
مد عرفناك عرفنا كل حسن
وعذاب

لهب فى القلب ، فردوس لعينى
فى اقترابى
غير أنا لا نرى الفردوس إلا
رسم راسم
وشربنا من جحيم الحب مهلا
شرب هائم

• * •

وصورة أخرى للتجديد فى الشكل ، نجدها فيما أسلفنا من نماذج .
ولكن العقاد كان يرى - ورأيه الحق فيما نرى - أن التجديد يجب
أن يكون مقيداً بقيود الفن ، لأن الفن فى ذاته قيد ، وكان يضرب
الأمثال فى ذلك بقوله إن المشى أسهل من الرقص ، ولكن الرقص دون المشى

هو الفن ، وإن الكلام أسهل من الغناء ، ولكن الغناء دون الكلام هو الفن ، فلا فن بغير قيد ، ومن القيد يستمد الإحساس بالجمال . وبعد ، فأخشى ما أخشاه ، أيها القارئ ، أن تزعم أنني أنصفته ، لأنني من مدرسته . بل الحق أنني كنت من المدرسة النقيضة ، وهي مدرسة شوقي ، ولا أزال عليها ، ولا أفنتأ أقول — على غير رأى العقاد — إن شوقي هو سيد القدامى والمحدثين بموسيقاه الفنية ، وأنا ممن يرون أن الموسيقى هي المادة الأولى في ملاط الشعر .



الشاعر الفخري

كامل الشناوي

كان كامل الشناوى بسمه على ثغر الحياة... لا تكاد تذكر يوماً من أيامه ، أو ليلة من لياليه ، إلا قفزت إلى شفتيك ابتسامة لنكتة قالها ، أو بيت طريف رواه ، أو « مقلب » هياه لبعض أصحابه . وكأن الله حينما خلق المموم على الأرض ، شاء - من لطفه بعباده - أن يخلق قوماً موكلين بإزالتها ، ومن طلائعهم كامل الشناوى . وله فى التفكه وقائع طويلة مع شاعر البؤس ، عبد الحميد الديب ، رحمة الله عليه .

عاش الديب أكثر حياته - إن لم أقل كلها - جائعاً ، نصف عار ، بلا مأوى ولا دخل .

وكان كامل الشناوى فى مطلع حياته الأدبية سنة ١٩٣٢ ، يقيم فى بيت ذويه بأحد منعطفات شارع السد . بحى السيدة زينب ، وهو بيت قديم ، مؤلف من ثلاثة طوابق ، كان كامل وحده يحتل الدور الأول منه . وكان على رقة حاله فى ذلك العهد ، كريماً مضيافاً . فكان يؤوى الديب عنده أياماً طويلة ، ويقتسم طعامه معه . ولكنه كان لا يفتأ يثندر على الديب ويتفكه به طول مقامه عنده . وكان الديب على سعة صدره وخفة ظله وشدة حاجته ، يضيق أحياناً بفكاهات كامل ، فيثور ، ويترك البيت ، ويحتمل الجوع والعراء أياماً ، إلى أن يصالحه كامل ويعود به إلى البيت . من تندرته عليه ، أنه كان يخرج

١٥٣

من جيبه عشرة قروش ، ويقربها من اللبيب ، ويقول للديب مشيراً إلى ورقة العملة :

— حضرته . . . عشرة صاغ !

ثم يلتفت للورقة ، مشيراً إلى اللبيب ، ويقول لها :

— وحضرته الشاعر الكبير عبد الحميد اللبيب .

أى أن أحداً منهما لم يروجه الآخر أبداً . ثم يفعل مثل ذلك بقطعة

من الصابون ، فيقلّمها إلى اللبيب ، ويقدم اللبيب إليها ، يعنى أن اللبيب لم ير الصابون ولم يستحم في حياته .

* * *

من الظواهر المشهورة في الأدب المصرى بالذات ، أن الشاعر أو الأديب الذى يضحك كثيراً في حياته ، يبكى كثيراً حينما يخلو إلى نفسه ، ويمسك بالقلم .

هكذا كان شاعر النيل حافظ إبراهيم . كان من أطرف ظرفاء عصره ، وكانت له نكات مشهورة . ومع هذا ، فإنه عندما ترجم . . . ترجم « البؤساء » . . . الكتاب الحزين لفكتور هوجو . وعندما نثر . . . كتب « ليالى سطيح » بحروف كأنها دموع وعندما نظم ، لم ينظم إلا الشجى والعذاب . وهكذا كان الشيخ عبد العزيز البشرى . وهكذا يفعل رابى . . . فهو إذا حدثك ، فهو من ظرفاء عصره . ولكنه إذا نظم ، فأغنياته جمرات من اللوعة والحرمان .

وهكذا أيضاً كان كامل الشناوى ، الذى طامأ ملأ الليالى بهجة

وإيناساً كان إذا خلا إلى أعماق نفسه . . . سخط على كل
 شيء . . . بادئاً بيوم مولده ، فهو القائل في عيد ميلاده :
 عدت يا يوم مولدى عدت يا أيها الشقى
 الصبا ضاع من يمدى وغزا الشيب مفرق
 ليت يا يوم مولدى كنت يوماً بسلا غد
 أنا تمر بسلا شباب وحياة بلا ربيع
 أشتري الحب بالعذاب أشتريه . . . فن ييسع

* * *

في ذلك البيت الذى حدثتكم عنه ، بيت آل الشناوى بحى السيدة
 زينب ، عرفنا الندوة الأدبية فى أول عهدنا بالشعر .
 وكان كامل عهدئذ قد تمرد على الأزهر الذى ألحقه به أبوه على
 غير رغبة منه ، ومجر الدراسة ، وتفرغ للثقافة العصبامية يطاهاها فى
 دار الكتب .

وكنا نجتمع فى « مندره » البيت كل ليلة ، نسمع من كامل
 ما أعجبه من محمول يومه فى دار الكتب . وفى الحق أنه كان ذواقة
 نادر المثال . وكان من خير الرواة ، ومن أعذب الأصوات فى تلاوة
 الشعر ، إلى حد أن أم كلثوم وعبد الوهاب كانا يطربان لإلقائه .
 من أمثلة ما كان يلتقط من الشعر ويعيه فى تلك الأيام ، ونحن فى
 أول الصبا ، هذان البيتان للشاعر العباسى ، العباس بن الأحنف ،
 يقول مجبوره :

أستغفر الله، إلا من محبتكم فإنها حسناق يوم ألقاه
فإن زعمت بأن الحب معصية فالحب أجمل ما يعصى به الله

* * *

ولد كامل الشناوى سنة ١٩١٠، فى قرية «نوسا البحر» . . . وهى
قرية حاملة تنام على ذراع النيل ، فى ظلال المنصورة الحسنة . وهذه
القرية التى شهدت طفولته ، هى التى رعت صبا شاعر آخر ، هو
المرحوم محمد الهمشرى ، الذى قال فيها :

منك الجمال ومنى الحب يا نوسا فعلى القلب، إن القلب قد يشا
أما المنصورة فهى مدينة الحب والجمال ، ومهبط الشعر والخيال . .
وفى رباهها ، غردت ، أول ما غردت ، أم كلثوم . . . وفى لياليها
شبت موهبة عبد الوهاب . . . وفى مقاهيها غنى محمد السنباطى ، ثم
ولده رياض السنباطى نفسه . . . وفى جزيرتها . . . ترنم على محمود طه ،
شاعر الجندول ، وإبراهيم ناجى ، شاعر الأطلال .

فى شهر ديسمبر سنة ١٩١٠ ، ولد كامل الشناوى وكأنه ، من فرط
سخطه على يوم مولده ، ذلك اليوم الشقى ، أبى أن يستقبله من جديد ،
وآثر أن يودع الحياة قبل أن يقبل ديسمبر بيوم واحد ، إذ مات
يوم ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٦٥ .

وكأنما كان كامل الشناوى على موعد دائم مع شهر ديسمبر . . .
ففى ديسمبر السابق لوفاته ، ولد ديوانه الأول والأخير . . . « لا تكذبى » .
وأنت حينما تقرأ هذا الديوان ، لا تحس بأنك قارئ ديوان شعر ، قدر

إحساسك بأنك تستمع إلى مجموعة من الأغنيات الحارة . حروف المطبعة تكاد تذوب أمام عينيك ، لترسم مكانها علامات موسيقية . وعناوين القصائد . تكاد تثقب الورق لتطل من هذه الثقوب أعناق أم كلثوم وهي تدق على باب مصر ، وعبد الوهاب وهو يترنم بالخطايا ، وفريد الأطرش وهو ينشج بأنشودة « يوم مولدى » ونجاة الصغيرة وهي تهمس لنفسها : لا تكذبى .

وفى هذا الديوان ثمان وعشرون قصيدة ، ما لم يلحنه الملحنون منها ، لحنه وقع الكلمة فى الأذن والقلب . وكامل الشناوى شاعر مقل ، ينظم الشعر منذ عهد أبولو ، أى منذ سنة ١٩٣٢ . ومع هذا ، فإن ديوانه هذا لا يتنظم أكثر من ثلثائة وعشرين بيتاً ، هى كل ما نظمته فى اثنتين وثلاثين سنة أى بمعدل عشرة أبيات كل سنة !

وأبرز ظاهرة فى شعر هذا الديوان ، أنه فى أكثره شعر حب ، ولكنه لون من الحب لاتشم منه رائحة الجسد . ولاتلمس فيه أثر الجنس فى كيان الشاعر نفسه ، ولكنك تشم تلك الرائحة ، وتلمس هذا الأثر ، فى كيان حبيباته ، وفى كيان الرجال الآخرين .

فكل حبيبات كامل الشناوى - فى مرآة شعره - خائنات . وكأن قلبه لا يتعلق إلا بالخائنات ، وهو مكتف من الموقف كله بالسهخط والغضب والثورة والعذاب والحرمان .

سألته مرة : ما سر شقائك فى الحب ؟

فردد لى البيت القديم المأثور :

وأما الملاح فيأبيننى وأما القباح فأبى أنا

• • •

ولنستعرض صور بعض خائناته :

يقول كامل ، فى قصيدة « حبيبها » :

حبيبها . . . لست وحدك حبيبها . . أنا قبلك

وربما جئت بعدك وربما كنت مثلك

إلى أن يقول :

وعانقتنى . . وألقت برأسها فوق كتفى

تباعدت وتبدلت كأصبعين بـكنفى

• • •

وسرت وحدى شريداً عظم الخطوات

تهزنى أنفاسى تخيمنى . لفتانى

كهارب ليس يدرى من أين ، أو أين يضى

شك ، صباب ، حطام بعضى يمزق بعضى

• • •

أأنت يا قلب ، قل لى أأنت لعنة حبي ؟

أأنت نقمة ربي ؟ إلى متى أنت قلبى ؟

• • •

إنها صورة ممثلة . . .

وقد لا تكون ممثلة على مسرح ولا على شاشة . . . وقد تكون ،

ولكنها على أبة حال امرأة تجيد تمثيل دور الحب على من يحبونها ، وهم
كثرون على حد اعتراف الشاعر .

ثم هو في قصيدة « قلبي » يقول :

كيف يا قلب ترتضى طعنة الغدر في الضلوع
وتدأري جحودها في رواء من الدموع ؟
لست قلبي ، وإنما خنجرأنت في الضلوع
ثم يصف هذه الغادرة ، وكيف هوت به خيانتها من القمة إلى
السفح ، قائلا لقلبه :

أوتدري بما جرى ؟ أو تدري ؟ دى جرى
جذبني من الذرى ورمت بي إلى الشرى
وبرغم هذا الغدر وهذه الخيانة ... وبرغم هذا السخط وهذه
ثورة ... فإنه يحبها لأنه يحب الخائنات . ويعترف بهذه الحقيقة في
نهاية هذه القصيدة التي يخاطب فيها قلبه :

دمرتني لأننى كنت يوماً أحبها
وإلى الآن لم يزل نابضاً فيك حبها
لست قلبي أنا إذن إنما أنت قلبها

* * *

وحول الخورين نفسيهما - محور الخيانة ومحور الرضا بالخيانة -
تدور قصيدته « ظمأ وجوع » :
أحببتها ، وظننت أن لقلبي
نابضاً كقلبي لا تقيد الضلوع

أحببتها فلذا بها قلب بلا نبض ، سراب خادع ، ظمأ وجوع
فتركها ، لكن قلبي لم يزل طفلاً يعاوده الحنين إلى الرجوع
ولذا مررت ، وكم مررت ببيتها تبكي الخطأني وترتعد الضلوع

* * *

قد يهمننا بعد ذلك أن نتقصى المدارس الأدبية التي أثرت في منهاج هذا الشاعر.

خمسة شعراء ، تركوا بصماتهم في نفس كامل الشناوى ، أو في شعره .
هم الشريف الرضى ، وأبو العلاء المعرى ، وأبو نواس ، وإيليا أبو ماضي ،
وأخير الشعراء أحمد شوقي .

١ - الشريف الرضى : : بكبريائه . . كان الشريف لا يخشى
أن يشمخ أمام الخليفة ويقول له في إباء :

عفواً أمير المؤمنين ، فإننا في دوحة العلياء لانتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبداً ، كلانا في المفاخر معرق
إلا الخلافة ميزتك ، فإننى أنا عاقل منها ، وأنت مطوق

أحب كامل في الشريف هذه الكبرياء ، وأحب الكبرياء .
مرة ، روى لي أنه مفتون بمضيفة في فندق هيلتون ، هي التي نظم
فيها قصيدته التي عنوانها « في الكافيريا » . . . ويقول فيها :

مرت بنا كالطيف تسألنا ماذا نريد ، فلذت بالصمت
ودنت لتسألني على حدة عما أريد ، فقلتها : أنت

غضبت ، وألقت نظرة نزع
يا ليتة يقسوى يقبلها
وأردت أرضيها ، فقلت لها :
أنا يا صبية شاعر هرم
قلبي ، وشدته إلى فمها
ياليتة ينساب في دمه
هل تعرفين ومن أكسون أنا ؟
قد جاء يستوحى الشباب هنا

* * *

أريد إلهامة جديده
بقدر ما أنظم القصيده

* * *

فأفتر ناظرها ومبسمها
وقصيدتي ما زلت أحلمها
وأظل طول العمر أنظمها

* * *

وذهبت معه إلى الكافتر يا ، لأرى فانتته وملهمته .
كانت شابة لطيفة ، خضراء العينين ، وليس فيها بعد هاتين العينين
الخضراوين ، ما يستهوى شاعراً إلى حد الاستلها ، إلا شيء من الاعتدال
بالنفس .

ومكثنا نحو ساعة ، ثم هممنا بالانصراف : وتركني كامل أودى
حساب ما أخذنا ، هامساً لي : « سترى » .

وأديت الحساب ، وتركت في الصحن الإكرامية الواجبة لثلثها ،
والتي تركها عادة لكل زميلاتها ، فلماذا وجهها يحمر خجلاً ، وإذا بها

تدفع بما فى الصحن نحو يدى قائلة فى أدب وحزم : « متأسفة » وتولى
مدبرة .

وقال لى كامل : أرايت ؟ إنها الوحيدة هنا ، التى ترفض أية
إكرامية . . كبرياء . . وأجمل مايفتننى فيها ، هذه الكبرياء .
ولحبه للكبرياء ، يقول فى قصيدة عنوانها « لست عبداً » :

علام يا قلب تشكو نقض الحبيب عهدوده
دع الهوان وحطم أغلاله وقيدوده
يا فتننى لست عبداً ولا أطيق العبوده
كونى الجحيم سعيراً فلن أكون وقوده
ويقول فى قصيدة أخرى :

لست أشكو منك فالشكوى عذاب الأبرياء .
وهى قيد ترسف العزة فيه والإبساء
أنا لا أشكو فى الشكوى انحناء
وأنا نبض عروقى كبرياء

* * *

٢- والشاعر الثانى أبو العلاء المعرى بحيرته وتشاؤمه . . . وكل
فلسفته .

فقد عانى كامل الشناوى شظفاً فى أول حياته ، ثم لانت له الحياة ،
ولكنها لم تلتن لبعض إخوته ، بل لعلها قست على اليتامى من أبناء بعض
إخوته ، فأسى كامل لهم ، وأعالمهم وكفلهم ، وير بهم كل البر ، وأحس

مأساتهم فلم يتزوج خشية أن يكرر المأساة ، آخذاً بقول أبي العلاء :
 هذا جنناه أبي على وما جنيت على أحد
 أما حيرة أبي العلاء ، فنها حيرة كامل الشناوى فى مثل قوله :
 زعموا حبي يا قلب خطايا لم يظهرها من الإثم بكايا
 والخطايا ما لها من غافر فترقى ، وتمهل فى الخطايا
 كما تأثر بأبي العلاء فى تشاؤمه ، وإن كان يدفع عن نفسه تهمة
 التشاؤم فى مقدمة ديوانه قائلا : « إن المجانين وحدهم هم الذين لا يضحكون
 للحياة » .

وما أعرف أحداً ضحكك للحياة فى حياته قدر ما ضحكك كامل ،
 وأضحك من حوله . ولكنه كان أشد الناس حزناً متى خلا إلى
 نفسه ليكتب شعراً أو نثراً .
 من تشاؤمه ، قوله :

دمعى ذاب جفنها بسمتى ما لها شفاه
 صهوة الموت ما أرى أم أرى غفوة الحياه ؟

* * *

٣ - والشاعر الثالث أبو نواس . . . أثر فى حياته ، بعيداً عن الشعر .
 فقد عاش كامل نواسياً يحب الليل وكل ما يحتضن الليل .
 كل ما بين الرجلين من خلاف ، أن النواسى كان حسيّاً ، مغرقاً
 فى المعصية ، أما كامل ، فقد غلبت روحانيته على حسيته .
 وكان كامل يعترف بأنه صديق لأبي نواس ، وقد حفظ شعره

١٦٣

ودرس حياته دراسة نفسية مفصلة ، وأزعم أن يكتب له سيرة بأسلوب جديد في رواية السيرة ، ونشر بعض فصول من هذا الكتاب في بعض الصحف .

٤ - ثم .. إيليا أبو ماضي داعية مذهب اللاأدرية في الشعر العربي ، وصاحب قصيدة « لست أدري » المأثورة .

لقد أثرت لأدرية أبي ماضي أيما تأثير في تفكير كامل الشاوي الشعري ، فهو يقول في إحدى قصائده :

إلى أين نمضي أيها الدهر بعد ما نصير هباء ، لاضحيج ولا صمت
وينسل منا الحب والخير والهوى وينسل منا الشر والغي ولما لقت ؟
إلى أين يمضي شينا وشبابنا إلى أين يمضي الومض والنفض والصوت ؟
وفي أي قبومتك خبأت من مضسوا وأبعدت مثوام فراحوا ولم يأتسوا ؟
وفي أي يوم نلتقي بهمو ؟ أجب فقد هدنا شوق وعدبنا كبت
خمس أسئلة في هذه الأبيات القليلة . . . يتساءلها الناس منذ آدم ،
ويظنون يتساءلونها حتى الإنسان الأخير . . . ولأجواب عنها أكثر
إقناعاً من هاتين الكلمتين : لست أدري .

ويوغل كامل في التسأل عن هذه الغيبات ، فيقول في قصيدة يسأل فيها من يكون « أنا » :

يارب فيم خلقتنا نهب الضباب
... فلا ظلام ولا سنا ؟
ونذب فوق الأرض لا ندرى بها
ونذب فوق الأرض لا ندرى بنا

أنا من أنا؟ أنا من أكون ؟
وسيلة ... أم غايية ؟
أنا لست أعرف من أنا !

٥ - وأخيراً ... أمير الشعراء شوقي .

وكان كامل الشناوى يقول ، كما نقول نحن ، إنه أستاذنا الأول
والأخير ، وإنه سيد الأولين والآخرين ، بموسيقاه السحرية ، ببيانه
المشرق ، بخياله الخصب ... بتناجه الضخم . بمسرحياته الخالدة ...
بجده وعيته ... بإسلامياته وغرامياته ... بمصريته وعروبه وإنسانيته ..
بمحافظةه وتجديده .

مرة ... هاجم أحد النقاد المحدثين من دعاة الشعر الحديد شوقي
في يوم ذكره ، وقال إنه لو عاش في زماننا هذا ما كان له شأن يذكر .
وبكيت يوم قرأت هذه الكلمة الحسيسة . وقال لى كامل الشناوى
كلمة كففت دمعى ... قال :
- لاعليك ... إذا رأيت الموتى يتقدون الأحياء .



شاعر النيل

محمد حافظ إبراهيم

إذا أردت ترجمة صادقة لحياة شاعر النيل ، حافظ إبراهيم ، فخير ترجمة لحياته قد كتبها المرحوم الدكتور أحمد أمين في مقدمته لديوان حافظ الذى أصدرته دار الكتب المصرية .
أما الذى أقدمه لك هنا ، فأضواء على نواح من حياة حافظ لم يسجل أكثرها نقاد الأدب ومؤرخوه ، فبقى في ذواكر المعاصرين والرواة .

* * *

كان حافظ شاعر الثورة .
وأنا إذ أقول هذا ، إنما أغنى هذه الثورة التى نعاصرها بالذات ، ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ . برغم أنه مات قبلها بعشرين سنة .
فإن سألتنى عن صلته بهذه الثورة ، قلت لك :
إن حافظاً الشاعر المصرى الشعبى ، ولد على ماء النيل لا على شطآنه . بعائمة في بلدة ديروط ، بمحافظة أسيوط نفس الإقليم الذى أنجب زعيم هذه الثورة ، جمال عبد الناصر .
ولم يعرف له تاريخ ميلاد ، وإن كانوا قد سننوه ، فقدروا أنه ولد في يوم ٤ فبراير سنة ١٨٧٢ .

أما تاريخ وفاته ، فهو يوم ٢١ يوليو سنة ١٩٣٢ . . . وهكذا ارتبط تاريخه بشهر يوليو ، ويوم ٢١ يوليو بالذات ، وهو اليوم الذى

اثمر فيه الثائرون ليتأهبوا للوشة الكبرى في تاريخ مصر .
وقد لمعت مواهب حافظ الأدبية منذ حداثة ، ومارس المحاماة وهو
دون العشرين بكثير ، وهي يومئذ مهنة لا تتطلب ثقافة خاصة .
ثم حببت نزعتة الوطنية الفروسية إليه ، فالتحق بالمدرسة الحربية ليحمل
السيف يذود به عن حياض الوطن .

وسرعان ما أصبح الضابط الشاب ، محمد حافظ إبراهيم ، في
طليعة الضباط الأحرار ، وكان عددهم ثمانية عشر ضابطاً ، أرادوا
أن يشبوا على الاستعمار الإنجليزي وأعوانه في السودان ، فتزعّموا ثورة
السودان ، وأيدهم الخديو عباس في السر دون الجهر ، فلما أخفقت
الثورة خذلهم الخديو وتخلّى عنهم ، وأحيل حافظ إلى الاستيداع ، ثم
إلى المهاش ، وهنا ذاق مرارة الجوع والحرمان .

* * *

ثم دعك من كل هذا ، وانظر كيف رسم حافظ في شعره الخطوط
العريضة نفسها التي آمنت بها ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ، قبل قيام هذه
الثورة بنصف قرن من الزمان .

لأنه يصرخ في قومه ليفيقوا من غفوتهم ويؤمنوا بمصيرتهم قبل إيمانهم
بغيرها ، ويدعو إلى إلغاء الألقاب والرتب والعبث الذي لا يجديهم
شيئاً :

أنا لولا أن لى من أمتى	خاذلا ما بت أشكو النوبا
أمة قد فتّ في ساعدها	بغضها الأهل وحب الغربا

تعشق الألقاب في غير العلا وتقدى بالنفسوس الرثبا
وهي والأحسادات تستهدها تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تنال لعب (القوم) بها أم بها صرف الليالى لعنا
والقوم هناهم الإنجليز

ثم نفا هو ذا يحمل على الأخلاق السياسية المنحلة في عصره حملة شعواء ، ويصيح صيحة التطهير ، حين يتعرض لانحدار الصحافة ولوذ الساسة بالقصر ودار السفير البريطاني ، فيقول :

«وكم ذا بعصر من المضحكات» كما قال فيها « أبو الطيب »
أمور تمر وعيش عسر ونحن من اللهو في ملعب
وصف تظن طين للذباب وأخرى تنين على الأقرب
وهذا يلوذ بقصر الأمير ويدعو إلى طله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطلب في ورده الأعذب

ثم عسلك بمحول الثورة لينقض به على الإقطاع انقضاضة متكررة في أكثر من قصيدة ، على حين أنه لم يتعرض أحد من شعراء عصره لهذه الظاهرة التي كانت قوام الحياة في عصر يومئذ :
يقول في قصيدة «الامتيازات» :

وعلى في مصر مغسرة سوى الألقاب والرتب
وذي لارت يسكن أورشلا يملك غدير مسكسب
وفي قصيدة أخرى ، يصنف عربى ميت نحو ، في رسم صورة الألقاف من الخيلج المعولة بعدد المواقف اللطيفة ، ثم يهيب بأحد الإقطاعيين

-- وهو المشاوى، باشا - أن يتحرك ضميره لأساة هؤلاء الغفاة . وكان
الشاوى يحتفل يومئذ بعرس في بيته تتحدث بأصواته الركبان .
يقول حافظ :

أيها الرافلون في حلقى السوشي ، يجرون للديوك الفخاير
لئن فوق العراء قوماً جياعاً يتلرون ظلمة وانكسار
قد شهدنا بالأمس في مصر عرساً ملائع العين والفرح المبهار
سلك فيه النصارى حتى حسبنا أن ذلك الغناء يجري نفسار
وسمعنا في «ميت عمر» صياحاً ملائع البر ضجة والبحار
جل من قسم الحظوظ ، فهذا ، وذلك يبكي الديار

• • •

كانت مجالس الأدب في الجيل الفذهب لا تذكر اسم حافظ
إلا مقترناً بشوقي ، ولما ذكر اسم شوقي إلا مقترناً بحافظ ، حتى كأنهما
توأمان .

وكان شوقي - في أعماقه في الأكل - لا يطرب لسماح اسم حافظ
مقترناً باسمه ، فقد كان يحس أن الشوط بينهما بعيد . ولعله أسر بهذا
لبعض خاصته ، فنقل القول إلى حافظ ، فساء ، فصاح يقول :
- « يا علم ... شوقي يقول كده ، والناس يوقى خلا تلاتين
سنة تقول شوقي وحافظ ، زى ما تقول سميط وجينة ؟ »
بدأ حافظ حياته الأدبية يقلد شاعر الجيل الأسبق ، رب السيف
والقلم محمود سامي البارودي . وقد آمن في تقليده لأنه شاء أن يكون

خليفته ، ربّاً للسيف والقلم أيضاً .

ولعله تطلع إلى أن يبلغ ما بلغه البارودى ، وزيراً للحربية ، ثم رئيساً للوزارة ، حين هجر المحاماة ودخل المدرسة الحربية .
ولكن حياة حافظ العسكرية بكرت بالأفول ، فجافاه هذا الأمل ، ولاسيما بعد أن شهد هزيمة العراقيين ونهاية البارودى الحزينة .

وكان نجم شوقى قد تألق . فراح حافظ يرسم لنفسه أمثلة جديدة غير أمثلة البارودى ، هى أمثلة شوقى ، فسار على غراره ، وقلده فى أغراضه ، حتى لقد حاول أن يمتحن عليه أجواءه .

كان شوقى شاعر القصر ، المقرب إلى رب القصر ، فتمنى حافظ لو أنه صرع شوقى فى حلبة القصر ، وانتزع منه هذا اللقب ، فراح يمتدح الخديو ، ويهنته بالمواسم والأعياد ، ويدعو له ولولى عهده عبد المنعم .

ولكن كل ذلك لم يبلغه أملاً .

بيد أنه بدلاً من أن يستريح ، أو يتواضع فيما يأمل ، راح يحلم بأن يبلغ شأواً أعظم من شأو شوقى . راح يحلم بأن يصبح شاعر الخليفة فى الأستانة ، فتوجه إليه بالقصائد الطوال . لعله يصبح شاعر الباب العالى ، لاشاعر الوالى فحسب . . . ومن ثم تكون له السيادة على شوقى . غير أنه أخفق فى هذا الحلم أيضاً ، فازداد على عقبيه ، وتواضع كل التواضع ، وانطوى فى محيط ضيق ، يمدح الوزراء والسراة والأعيان .

وكان البؤس قد حط عليه بعد خروجه من الجيش ، فقد خرج بمعاش

لا يزيد على أربعة جنينيات . فوصله شوق وحذب عليه ، وسعى له عند داود بركات ليعينه محرراً بالأهرام ، فلم يقلح ، فخاطب القصر في شأنه ، فجعل القصر له راتباً ظل يصرف له حتى نهاية حياته .

ومن هنا لان ناب حافظ مع القصر ، فامتدح فؤاداً كما امتدح حسيناً كما امتدح عباساً من قبل . ومن هنا أيضاً لان حافظ مع شوق ، فكان يعترف له بالإمارة جهراً ، وإن كان يحفظ عليه في سره .

أما اعترافه لشوق بالإمارة ، فشواهد كثيرة . منها قوله في مدحة للخديو عباس :

لم يبق « أحمد » من قول أحاوله في مدح ذاتك فاعذرني ولا تعب
وقد درج حافظ على هذه السياسة ، حتى لا تكاد مدحة واحدة من مدائحه الخديوية أو السلطانية أو الملكية تخلو من إشادة بشوق .

ولعله أراد بذلك أن يأمن غدر شوق ويضمن رضاه ، فرضاه من رضا القصر

ولعله أراد أيضاً أن يؤكد للناس ، أوللتاريخ ، أن إمارة شوق سندها الأول هذا القصر .

على أن له في شوق مدائح كثيرة ، بعيدة عن ذكر القصر ، أشهرها وأبهرها وقفته ليلة مبايعة شوق بإمارة الشعر ، يلقي السلاح ويعترف الاعتراف الأخير :

أمير القوافي قد أتيت مبايعاً وهذى وفود الشرق قد بايعت معي

* * *

هذا ما كان في الجهر . . . فاذا كان وراء الجهر ؟

إن كلا الرجلين كان يعرف قدر نفسه وقدر أخيه . ولكن الطموح أفسد نفس حافظ على صاحبه بعض الزمن . فلما غلبه اليأس ، داراه ومراه . ولذعه كثيراً في غيبته بالشعر والنكتة في مجالسه الخاصة ، وإن يكن استسلم له في الجهر ، واعترف له بالإمارة .

أما شوقي ، فلم يكن يخشى أن يفقر حافظ إلى مكائنه يوماً ما ، ولكنه كان يخشى لسانه . فوصله وأحسن إليه ، وهناك أيضاً حقيقة نفسية هامة ، هي أن شوقي كان ينفس على حافظ شيئاً واحداً . ذلك أن شوقي كان يهجر عن إلقاء قصائده ، فيعهد بهذه المهمة إلى غيره . أما حافظ ، فقد كان صناجة ، وكان يلقي قصائده ، فيهر أعواد المتأثرين ويأخذ بمجاميع القلوب . هذا ، إلى أن حافظاً كان يملأ المجالس بهجته ويستأثر بأسماع الحاضرين بنكتته اللاذعة وبديته الخاضرة وحليته الحلوة ، على حين كان شوقي يظلم المجلس ، كأنه عبي اللسان !

وقبل أن أنهي من الحديث عن الشاعرين ، أقول إن حافظاً قد حاول أن يخلق في أجواء شوقي الواسعة ، فكبا كثيراً ، وكانت أكبر كبواته مدانحه في ملوك الإنجليز .

وسحاول أن يخطف حظو صاحبه في رثاء أعلام الغرب كتولستوي وغيره . وفي الإشادة بالأحداث العربية القديمة والعالمية الحديثة ، ولكنه لم يصل إلى شيء من مهارة شوقي . فلما أن تحول إلى الأحداث المصرية الحديثة ، أبدع وأجاد ، وصحح أن يقرن اسمه باسم أمير الشعراء . وأحب هذا أن أسجل رأياً لأستاذ الجيل أحمد لطفى السيد في

شوقى وحافظ ، أوردته عميد الأدب طه حسين في بعض كتبه .
 قال العميد : « كنت مرة عائداً مع الأستاذ أحمد لطفى السيد
 بعد أن حضرنا اجتماعاً لتخليد ذكرى حافظ . قبل أن يموت شوقى .
 وكنا نتحدث في أمر الشاعرين ، فقال لطفى بك : لقد خدعنى حافظ
 عن نفسه كما خدعنى شوقى عنها . كنت ألقى حافظاً في أول عهده
 بالشعر ، وكان يسمعى كثيراً من شعره فلا يعجبى . فقلت له ذات يوم
 (أرج نفسك من هذا العناء ، فلم يخلقك الله لتكون شاعراً) ولكنه لم يقبل
 نصيحى ، وحسناً فعل . فما زال يجد ويكده حتى أرغم الشعر على أن
 يذعن له ، وأصبح شاعراً . وكنت شديد الإعجاب بشعر شوقى ، أقرؤه
 في لذة تكاد تشبه الفتنة ، وأثنى عليه كلما لقيته . فما زال شوقى يكسل
 ويقصر في تعهد شعره ، حتى ساء ظنى بشعره الأخير » .
 هذا هو رأى لطفى السيد ، الذى رواه طه حسين وأقره عليه .
 ولا شك أنه رأى متعسف ، فعندى وعند غيرى من المنصفين أن الشعر
 العربى لم يشهد أروع من مسرحيات شوقى الشعرية التى نظمها في
 أخريات سنى حياته .

* * *

وقبل أن اختتم هذه السيرة ، أحب أن أسوق بعض نقاط تلقى
 أضواء بارزة على حياة صاحبها .

« كان حافظ « مقطوعاً من شجرة » كما تقول العامة . مات أبوه
 وأمه ، فكفله خاله ، ثم ضاق بمقامه وطعامه ، فخرج حافظ من البيت

وقد ترك لخاله هذين البيتين :

ثقلت عليك مثونتي لاني أراها واهيه
فافرح فاني ذاهب متوجه في داهيه

ولم يعرف له أحد في أواخر أيامه أحداً من الأهل غير زوجة خاله ،
التي كانت تقيم معه في بيته بجلوان ، تطهو له وترعاه ، وكان أصحابه
الذين يسمرن معه كل ليلة ، محمد البابلي ، ومحمد المويلحي ، وعبد العزيز
البشرى وغيرهم من ظرفاء العصر ، يشهدون لها ببراعة الطهو ، إلى أن
ماتت وخلفته وحيداً في الحياة .

والذي يقرأ خريات حافظ ، يعتقد أنه كان سكيراً مدمناً وشواهد
شعره في هذا كثيرة أشهرها قوله :

أسقنا يا غلام حتى تـراننا لانطبق الكلام إلا بهمس
خـرة قيل إنهم عـصروها من خـدود الملاح في يوم عرس
وقوله في رسالة بعث بها إلى بعض أصحابه إذ هو ضابط بالسودان :
فتية الصهباء خير الشاربين جددوا بالله عهد الغائبين
واذكروني عند كاسات الطلا لاني كنت إمام المدمنين

والحقيقة ، كما أكدها لي صديقه وصفيه المرحوم فؤاد شيرين باشا ،
أن حافظاً كان مقلداً كل الإقلال في الشراب ، وكان إذا شرب كأساً
حاول أن يخلص من أثرها بسرعة .

١٧٥

أما خرياته فلعلمها أثر من آثار تقليده لكبار الشعراء ، وفي طليعتهم شوقي .

• كان حافظ أكثر الناس مرحاً ، وكان هذا المرح يضي على مجالسه شعشة باهرة ، حتى لقد قال العقاد حين وقف على قبر حافظ يرثيه :

أبكاء وحافظ في مكان ؟ تلك إحدى عجائب الحدثنان

ومع هذا فشعر حافظ وثره نسيج من الأحزان والمهوم ، حتى لقد كان يقول دائماً : « لا يطيب لي نظم الشعر إلا إذا كنت محزوناً » .
• تزوج حافظ مرة ، ولم يدم زواجه إلا بضعة أشهر ، ثم لم يكرر غلطته قط . أما شائعة تشبيهه بالغلغان فقد كان مصدرها حبه للتندر ، دون أن يكون لها أثر في حياته مطلقاً ، كما يؤكد صديقه فؤاد شيرين وأحمد رامي .

• كان كل من حافظ ومطران يباهى صاحبه بأنه أجمل منه ، مع قلة حظهما معاً من الجمال ، وقد اختلفا في ذلك يوماً ، فاتفقا على أن يوقع كل منهما عريضة من أعيان القاهرة تشهد بأنه أجمل من صاحبه .

وذهب مطران إلى السيد عبد الحميد البنان ليوقع له عريضته ، فرفض ، فما زال يلح به حتى أقر له بما يريد ، وكتب له في النهاية « المقر بما فيه رغم أنفه » وهذه إشارة إلى أنف مطران ، وهي كما يعلم الناس شوهاء .



لحافظ — عدا ديوانه — ترجمة كاملة لمسرحية شكسبير « ما كيث » نشر جزء منها في ديوانه . أما الباقي فقد ضاعت معالمه ، وكانت ترجمة يختلط فيها الشعر بالنثر . وقد أعانه على الترجمة من الإنجليزية صاحبه فؤاد شيرين .

وله إلى جانب ذلك ترجمة رواية « البؤساء » في جزأين ، صدر ثانيهما بعد الأول بعشرين سنة . وقيل إن الأستاذ الإمام محمد عبده كان يساعده في ترجمة هذا الكتاب ، لضعف فرنسية حافظ .

تم إن له كتاب « ليالى سطيح » . وكتاباً آخر في الاقتصاد السيامي ، اشترك في ترجمته مع خليل مطران .

* كان حافظ على فقره متلاًفاً إذا جاءه المال ، إلى حد أنه تسلم يوماً ألفين من الجنيهات من وزارة المعارف حينما قررت تدريس ترجمته للبؤساء في المدارس . وقد أنفق المبلغ برمته في شهر واحد .

* على الرغم مما كان بين شوقي وحافظ ، شاء الموت أن يضمهما في عام واحد ، هو عام ١٩٣٢ . وقد سبق حافظ صاحبه إلى طريق الله ، فنظم فيه شوقي مراثيته الرائعة ، التي مطلعها :

قد كنت أوتر أن تقول رثائي يا منصف الموتي من الأحياء !



شاعر الحضارة الرفيعة

م.ع. الهمشري

ما عرفت شاعراً يحب الحياة ويفرّ من الموت كهذا الشاعر ،
رحمه الله . . .

كان يحب الحياة وينبهاً نهياً .. وقد يضلّك من أمره أنك لا تجد في
شعره أثراً للضحكة أو ابتسامة . بل لعلك واجد كل ما هو عكس ذلك ،
من تجمّع وتشاؤم ، وحديث عن الموت ، وقبوات بدنو أجله . وحسبك
من ذلك أن تقرأ ملحمته « شاطئ الأعراف » ، لتجده يتمثل كلمات
« الموت » و « المتايا » و « المنون » وكل ما يؤدى هذا المعنى أكثر من
مائة مرة في قصيدة واحدة !

ثم تقرأ بقية شعره ، فلا تجد له قصيدة واحدة خلت من ذكر
الموت ، وهو القائل :

غداً يا خيالي تنهى ضحككنا وآلامنا تفتى ، وتفتى المشاعر
وتسلمنا أيدي الحياة إلى البلى ويحكم فينا الموت ، والموت قادر

* * *

ولد الممشري ميلاداً شاعريّاً ، على شاطئ رأس البر ، سنة ١٩١٠ .
ومات ميتة خاطفة وهو في عمر الزهور ، سنة ١٩٣٨ . وبرغم أنه لم
يعش أكثر من ٢٨ سنة ، فقد خلف وراءه تراثاً شعريّاً ، قوامه أكثر
من ألف بيت ، يعد ذخيرة من أجمل ذخائر الشعر المعاصر .

* * *

كان اسمه الكامل : محمد عبد المعطى الحمشرى . غير أنه كان يؤثر أن يوقع تحت قصائده على هذه الصورة : « م . ع . الحمشرى » أسوة بما كان يفعله شاعره الأثير فى الأدب الإنجليزى ب.ب.شلى . ولو كانت الأمور تجري مجراها الطبيعى فى حياة الناس . لكان الحمشرى شاعراً أعجمياً . ولعاش على الشاطئ الآخر من البحر المتوسط . ليضيف التراث الذى خلفه وراءه ، لا إلى الأدب العربى . بل إلى أدب تلك الدولة الصغيرة ، ألبانيا ، التى ولد فيها جده . أحمد الحمشرى ، قبل أن ينترح إلى مصر .

ولكن هذا الجد ، اظروف لانلم بها ، هاجر إلى مصر ، وطاب مقامه فيها ، ورزق فيمن رزق من البنين ، عثمان الحمشرى والد الشاعر .

تزوج عثمان الحمشرى سيدة تركية ، رزق منها ابنة واحدة ، ثم لم تطب حياته معها . ولعل سر هذا أنها لم تنجب له ولداً . فاهتدى إلى الزوجة الثانية . وتخبرها هذه المرة من أسرة مصرية من المنصورة ، اشتهر أفرادها . المتعلم منهم والأخى على السواء . بالكاء والألمعية . كانت هذه الزوجة الثانية . هى السيدة عائشة ، شقيقة الكاتب الكبير الأستاذ محمد التابعى . صاحب الأسلوب الفردى النقد والسخرية ، ومنشئ المدرسة الأثيرية فى عالم الصحافة . وأعمرت هذه الزيجة خمسة أولاد وبنات ، كان أولهم شاعرنا م . ع . الحمشرى .

* * *

نشأ شاعرنا فى المنصورة . . .

والمنصورة أرض طيبة ، تنبت الشعر والجمال ، وتلهب الحب والخيال ،
ويشتهر رجالها بالظرف والذكاء ، والإغراق فى حب الأدب والفن ،
كما تشتهر نساؤها بالجمال والخفة والشاعرية .

وكانت سماء المنصورة يومئذ تجلجل بالشعر . كان فيها على محمود
طه المهندس ، صاحب أنشودة الجنود ، وكان فيها أيضاً الدكتور
إبراهيم ناجى ، شاعر اللفظة العاطفية .

فى هذا الجو الحالم ، نشأ الهمشئى ، وبدأ يغرد ويردد أغاني
الحب .

وكانت بين حسان المدينة يومئذ شابة حلوة ، أصلها من قرية
قريبة من المنصورة ، تنكئ على ذراع النيل ، اسمها « نوسا البحر » . . .
التي ولد بها كامل الشناوى كما روينا من قبل .

كان اسم الصبية المدللة « توحة » . . وكان يحلو لها أن تخرج ساحة
العصر من كل يوم ، فتسير فى شوارع المنصورة ، وقد لفت جسدها
الغض بملاءة- حريرية سوداء هفافة كبئات البلد - مع أنها لم تكن
منهن - وتبتخر فى مشيتها بحجرة تذيب قلوب الشباب ، ولا تظن
على أحد منهم بنظرة عابثة ، أو ابتسامة مغرية ، ترسلها من خلف
نقابها للشفاف .

ويقولون إنها كانت بطلّة الكثير من القصص في المدينة . ولكننا
— أنا والهمشري — كنا لانزال تلميذين صغيرين في المدرسة ، دونها سنّاً ،
وهي في أجمل أيام الشباب ، في نحو العشرين . فلم يكن لنا أن نظفر
منها بوحدة من هذه القصص التي ينسبونها إليها ، إن صدقاً وإن
كذباً . ولكننا كنا نكتفي منها بالنظرة العابثة والابتسامة المغرية دون أن
نطمع في أكثر من هاتين ، لتتخذ منهما وحيّاً لشيء ننظمه .

وذات يوم ، نظم الهمشري قصيدة عاطفية من أرق شعره ، وجعل
عنوانها « إلى فوسا » وهو اسم قرية « توجة » قال فيها :

منك الجمال ومنى الحب يانوسا فعلى القلب ، إن القلب قد يشا
يا حبدا نسمة من توجة خطرت أطالت النفس من أسبابها النفسا
ولم يدر بخيالنا ، ونحن نقرأ القصيدة ، ونرى ما فيها من حديث
عن الحب اليائس ، والقلب الذي تحول إلى برق ، أكثر من أن الهمشري
شاعر ، وللشاعر أن يحلم ما شاءت له أحلامه ، وللشاعر أن يتصور
في الخيال ما لا يبلغه في الواقع ، وللشاعر أن يعذب نفسه ما يعذبها
من أجل محبوب لا يحس وجوده ولا عذابه .

ذلك هو الأمر كما كان في أوها منا . ولكنه كان أجلّ من ذلك
في حقيقته التي لم يحدثنا عنها قط ، إلى أن مات ، فأمر إلينا بها
ذووه .

وما كان لي أن أذيع بعض نأ هذه الحقيقة ، لولا أنني مضطر
إلى إزاحة بعض الآثار عنها بالقدر الذي تتطلبه أمانة التاريخ الأدبي ،

والذى يكتمل إلقاء الضوء على مصدر أكبر عمل فى حياته الأدبية .
وهى ملحمة « ساحى الأعراف » .

فالحقيقة أن « توحة » لم تكن هى بطلة قصيدة « نوسا » . وإنما أقحم
اسمها إقحاماً على القصيدة لكى يستطيع من كل قلبه أن يتحدث عن
نوسا « بغير كثير من الحرج » .
كان له فى « نوسا » أمل .

ذلك أن زوج خالته كان عمدة « نوسا » وكانت هذه هى الصلة
التي ربطته بنوسا منذ طفولته .

وكانت بين أترابه طفلة صغيرة فى مثل سنه ، أو أقل قليلاً .
هى ابنة بيت من البيوتات الكريمة فى نوسا .

كانا يلعبان معاً فيمن يلعب من أبناء القرية ويتأنها إذ هم صغار
يطيرون فى الحقول كالقراشات . يتعقبون القراشات ، ويسرحون
ويعرحون فى براءة الطفولة .

ثم كبر الزمن ، وكبر الممشى وكبرت هى معه . حتى بلغا
اليفاعة ، فوجب عليها - وهى ابنة الأسرة المحافظة - أن تحتجب فى
خدرها . ولم يكن الممشى يدرى ، إذ هو يكبر مع الزمن ، أن عاطفته
نحوها تكبر معه . فكان يكثر من التردد على القرية الهادئة ، يتشم
أخبار صغيرته ، التى كبرت . ويسعدده أن يلمح طرفها من نافذة
بعيدة ، ويعود ليملا الدنيا بحبها شعراً وغاناء .

هذه - لا توحة - هى الملحمة الحقيقية لقصيدة « نوسا » .

١٨٥

وما اسم « توحة » في القصيدة إلا تنويه . حرصاً منه على قداسة الخب
الوحيد الذي عاش في قلبه إلى أن سكث هذا القلب .

وكانت قصيدة « نوسا » هي آخر ما نظمته الممشرى في حياته من
الشعر العاطفي بعد أن عاد إلى نوسا ذات يوم . فعلم أنه فقد حبه إلى
الأبد ، إذ رقت حبيبته إلى غيره . وكان يتمناها لنفسه ، فانهقطع
الأمم !

* * *

انتهى الشاعر العاطفي . . .

وسجر الممشرى كلية الآداب . والتحق بوظيفة بالتعاون . . وكان
التعاون يومئذ تايماً لوزارة الزراعة .

كانت وظيفته تحرير مجلة « التعاون » وقد عرف الممشرى
مكانه من الحركة التعاونية منذ البداية ، إذ قرأ سيرة الشاعر الأيرلندي
الكبير « جوج راسل » الذي وهب حياته وشعره وقوه للكفاح ضد
الاستعمار البريطاني . وضد الرجعية والإقطاع ، وحمل رسالة ندعوة
التعاونية والحضارية الريفية ، على صفحات مجلته « ذا ويلز الأيرلندي »
فلقي . كانت مجرد مجلة ريفية ، فيجس منها راسل مجلة عالمية . تحمل
رسالة الحضارة الريفية إلى جميع أنحاء أوروبا وأمريكا !

وتتلخص رسالة الحضارة الريفية في الدعوة إلى بث التربة الديمقراطية
في أهل الريف عن طريق التعاون والتقضاء على الجوع والفقر والجهل
بينهم ، وقفل مزايًا الحضارة — دون سوءاتها — من المدينة إلى القرية

بإنشاء المدارس والمسارح والأندية وقاعات المحاضرات والمستشفيات ،
وتعبيد الطرق وتعميم الإضاءة الكهربائية ومياه الشرب النقية وتهذيب
الشواطئ ، وتجميل الحياة ، والإهابة بأعيان الريف—وكان يسميهم
« الحاربون من الميدان » للعودة للريف ، ليعملوا على ترغيد الحياة
فيه .

آمن الهمشري بهذه الدعوة ، فحمل رسالتها على صفحات مجلة
التعاون .

وعلى الرغم من أنها كانت مجلة حكومية ، تابعة للدولة الملكية
الحزبية الرجعية في ذلك الوقت ، فإنه حمل على هذه العناصر حملة
شعواء في شجاعة بالغة .

جند الهمشري سلاحه ، المقالة والقصيدة ، لتحقيق هذه الدعوة .
جعل المقالة للدعوة الإيجابية ، تحقيق الحضارة الريفية ، وجعل القصيدة
للدعوة السلبية ، وهي الإشادة بجمال الريف ، والتغني بمزاياه .

وبعد أن كان شاعر العاطفة ، كما أسلفنا القول ، أرسيت النهاية اليائسة
لقصة حبه في « نوسا » نهايته كشاعر عاطفي ، وأعلنت ميلاد أعظم شاعر ريفي في
تاريخ الأدب المعاصر ، يتغنى بالربيع فيها ، ولياليها القمرية ، وأشجار النارج
التي تملأ أجواءها بالعطر ، ونخيلها المتطلع إلى السماء ، وإشراق الشمس
وطلوع القمر ، وأحلام الفجر ومسارح الشفق ، كما لم يغن شاعر
آخر من قبل ، ويطعم أخيلة وألفاظاً ومسميات جريئة لم يقتحمها

١٨٧

شاعر من قبل ، في مثل هذه الأنشودة الريفية ، التي يصور بها غناء
الفلاح بالحموسته :

تنقلى تنقلى من جدول بجدول
جاموستى ياساحره جوبى الحقول الناصره
تنقلى... تنقلى

يشدولك العصفور ويهمس الغدير
تنقلى... تنقلى
خطوتك الحسناء يمشى بها الرجاء
تنقلى... تنقلى

تنقلى فى الريف وبالمروج طوفى
تنقلى... تنقلى
جوبى مع الصباح يا منية الفلاح
يا ظيية البطاح تنقلى .. تنقلى
من جدول بجدول

هذا هو الربيع وجوه البديع
تنقلى... تنقلى

وفى لطفى الحريف فى حوشك الوريث
وفى ظلال اللوف بجانب الشادوف
نامى هناك نامى

وإن أتى الظلام ورحع الأنعام
يسركبك الغلام إلى فناء الدار
تنقلى . . . تنقلى

“ ” “

لقد رحل الممشى قبل البثاق فجر الثورة بأربعة عشر عاماً .
ومع هذا . . . فإنه كان على رأس شعراء الثورة .
رحمه الله ، وأنزله جنة الشعراء والملمهين



محتويات الكتاب

الصفحة		
٥	: إبراهيم ناجي	شاعر الرقة العاطفية
٢١	: أبو القاسم الشابي	شاعر الجبل الأخضر
٢٩	: أحمد رامي	شاعر الشباب
٣٩	: أحمد زكي أبو شادي	شاعر مملكة النحل
٤٧	: أحمد شوقي	أمير الشعراء
٧٣	: أحمد فتنحي	شاعر الكرنك
٨٥	: إلياس فرحات	المتنبى الجديد
٩٣	: بشارة الخوري	الأخطل الصغير
١٠٥	: خليل مطران	شاعر الأفطار العربية
١١٣	: رشيد سليم الخوري	الشاعر القروي
١٢٣	: صالح شرزوبي	شاعر البحر الأبيض
١٣٣	: عباس محمود العقاد	الشاعر العملاق
١٥١	: كامل الشناوي	الشاعر الظريف
١٦٥	: محمد حافظ إبراهيم	شاعر النيل
١٧٩	: م. ع. الحمشري	شاعر الحضارة الريفية

١٩٨١ ٣١٧٢	رقم الإصدار
ISBN ٩٧٧-٥٠٠٨٨١-٣	الترقيم الدولي

١ / ٨٣ / ٩٧٩

طبع بطبع د. محمد ج. ع

۸/۶۷۶۸۰۳

قوش چشپه
۶۹۰۰

